المنذر يبحث عن قلبه

مملكة الضباع 3

أسماء الأوجلي

إهداء

اهدي حبي وهذا العمل لكل من
انتظره عسى ان يمس وترا في قلبه وان
يغوص في تراث العرب وتاريخهم الذي
لا ينضب ,وجزيل الشكر للمدققة اللغوية
والمصممة

Sundus Mohammed

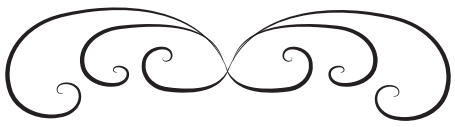

{27}

للملك سياسه الخاصة في الحكم، ففي مملكته لا يحمل السيف إلا بأمره، و لا يَغِيرُ(أي لا يهاجم أو يسطو) أحد على أحد، و لا قبيلة على قبيلة أخرى. بل كل متساوين في العيش تحت ظله، و يتنافسون لنيل رضاه، إلا إذا هاجمهم دخيل أو جاسوس، يسمح لهم بحمل السيف دفاعا عن نفسهم، و قد رأيت من سياق الروية، أن الذين يدخلون على الملك مع سيوفهم معدودين، و هم : الأمراء الثلاثة، و لبيد، و عمر بن عم الملك، و الحاجب يحمل السيف عند الباب، على كتفه أو خصره، و الجلاد، و زبيد فقط.

و هم ثمانية كلهم مقربون و خاصة الملك. أما قائد الجيش فيمنع عليهم أن يحملوا السيف، و لا يدخلون على الملك حتي يفتشون و تأخذ سيوفهم. و كذلك السفراء و الضيوف، و أمراء الروم، و كل من يطلب عون وحمآ الملك.

و الملك لا يقتل الجواسيس، إلا إذا كانوا من خاصته من الشام و الحوران و البلقاء. أي أنه لا يقتل إلا الخائنين، فهو يكرههم كما يكره الكذب. و هو كريم جواد، لا يطرق بابه أحد عدو أو صديق حتي حمل في صدره إباء و حلم الملك. بل إن الملك قد أمسك جاسوس عليه من الفرس يوما، فأطلقه لسبيله كما يفعل دوماً و أعطاه مالًا و زاداً، و أحد أفراس الملك، فيخرج عزيزاً بعد أن دخل ذليلا.

و ليس من عادة الملوك الضبعين أن يكون لهم جواري، بل من يريد أن الزواج يفعل و إلا فلا. فالملك لا يريد من أمرائه أن يكونوا للحب و النساء، و يتشاجرون على الجواري و يضيعوا الملك و العرش. و لهذا كان الملك لما جلس على عرشه، و بعث له قيصر الروم الجواري الحسان، جعلهن للخدمة في القصر، إلا شهرزاد فقد أحبها حباً ملَك عليه قلبه، فتزوجها و أنجبت له قيس أميراً محبوبا، كولده متوقد الذهن. و لكنها لم تصبح الملكة كما أسلفت، فتزوج سمية بنت أخشب بن العباس لتكون ملكة له. و هكذا كان لديه زوجتين، تربي كل منهما ابنها ليكون أميرا قوياً. و كان الملك بحب اليفع كما يحب قيس و المنذر، و لكن اليفع كان بطبعه طميعاً و كتوماَ، و كان عروة يلهب قلبه، و

يصور له أن الملك لا يحبه و إن أخويه يكرهانه. و لكن بعد أن خطب له الملك سلمي، بدأ قلب اليفع يتغير ليصبح أكثر شفافية و نقاء. نعم لقد أحب اليفع سلمي، و تكلم معها أكثر من مرة، فقالت له مرة : إن مولاى الملك قد خصني بمرتبة رفيعة، و لا أعلم هل أنا أصلح لها ؟

كان تواضع سلمي و ابتسامتها المفتاح لقلب اليفع، فأصبح يكره الخمر و لا يكثر في الشرب، و رفض أن يأتي له عروة بالجواري دون علم الملك. فكما أسلفت كان ذاك ممنوعا، فأحس عروة بالخطر من سلمي، و لكن أني له أن يتخلص منها و الأميرة ترافقها في صباحها و ليلها، و تحميها و تمهد لها سبل التقرب من اليفع. فقرر عروة أنه لن يستعين باليفع على شروره، و أنه سيخطط وحده، و لكنه سيستعمل اسم اليفع دون علمه، و ارتاح عروة لهذه الفكرة، و أخذ يُبدع و يخطط للإيقاع بين الملك و المنذر. و عروة من أبناء عمومة الملك، و هو نديم و حارس اليفع، و لكن والد عروة كان قد مات في الحرب، فقد قام الفُرس بعمل كمين للإيقاع بالملك، فمات والده مع خلق كثير في تلك الحرب. و منذ ذلك الحين تغلغل الكره و البغض في قلبه. و احتضنه عمر ليربيه مع ليث، فعطف عليه، و اعتني له كابن ثاني له؛ و لكن روح الشر في قلب عروة، لا سبيل لأن تتغير إلا إذا قرر هو نفسه ذلك. إن حلم عروة هو أن يرى الملك مهزوماً، و يفرق بينه و بين أولاده كما فرق بينه و بين والده المغدور. فاستعمل الملكة لتقرب من اليفع، و قد ساعدته الملكة على ذلك، فقد أرادت أن يستأثر بنو العباس بالمقاليد الحكم، فساعدت عروة ليعصي اليفع أوامر الملك عدة مرات. و لكن الملك في كل مرة كان يعفو عنه و يسامح، ففكر عروة أن اليفع إن اعترض لشرف إحدى بنات الأمراء، فعندها سيضطر الملك، رغما عنه لينفيه أو يقتله لكي لا يثور أمراء العشائر عليه. و لكن الأميرة كانت له بالمرصاد، فمشت تزور اليفع في غرفته مع سلمي. كما مر في الجزء الثاني و لما خرجت، عادت لتقول لعروة أن سلمي قد سقطت منها قلادة في غرفة اليفع، فاضطر عورة لإعادة القلادة مكرها و فشلت خطته. و استعملت الأميرة حب الملك لها فعرضت أن يتزوج اليفع إحدى وصيفاتها كما مر، و عندها حفظت الأميرة شرف سلمي و مكانة اليفع و ثبات العرش، دون علم أحد بذلك في ذات

الوقت. رأى اليفع سلمي و رأى فراستها فخفق قلبه لها، و تحير في أمر هذا الخفقان، و بدأ اليفع يلاحق سلمي بعينه، و يكلمها و يزور الأميرة ليراها، و نبد من عقله فكرة كره الملك له و لأخويه، و لماذا ؟ لأن سلمي قالت : مولاى، إن الملك يحبك و يحترمك، و قد سمعته يقول ذلك للأميرة، و أخويك الأميران يكنان لك الحب و الإجلال، فافتح قلبك لهم. ترى ذلك بعينيك.

و قد كان كلامها كالسحر، يدخل قلب اليفع فيحرك مشاعره، نعم لقد قرر اليفع أن يحاول معرفة و التَحقق من حب أخويه له, و صدق كلام سلمي, و أصبح لا يطيق سماع كلام عروة و أخذ يتجاهله.

و أما الملكة فلما رأت أن مخططها قد فشل، و أن المنذر كاد يموت لأنها من خططت لقتل كوكب. تابت لربها و نفضت أفكارها، فقد كان اليوم الذي عاشته متخيلة أن المنذر يدخل على الملك ميتاً، كان من أبشع و أفزع الأيام. فخافت على ابنها عواقب أفعالها، و ندمت على ما فعلته لكوكب. و لكنها لم تستطع أن تكشف سرها، أو تفضح عشيرتها فظلت أيامها تمر في قلق، و لياليها مضطربة مليئة بصور كوكب المسكينة. و لما دخلت عليها ماريا لتحدثها غضبت منها، و قالت : إنك سبب البلاء، لقد كاد المنذر يموت بيدي أنا، كنت سأقتل ابني بأفعالي و إصغائي لأفكارك.

و طردتها و لكن ماريا ما كانت لتترك الملكة، فضلت بعيدة عنها لفترة حتي هدأت، و عادت لتخدمها و تدعي الندم.

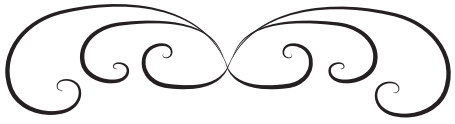

{28}

- بطيب لنا أن تكمل الحديث يا لبيد، فقد انقضى زمن السلم و نريد الأن أن نعلن الحرب على سابور فحدثنا برأيك.

عاد الملك لجلوس فهدأت الصدور، ثم قال لبيد : مولاى، إن كان علينا أن نشهر سيف الحرب في وجه سابور، فاعلم أن أمراء نجد أولاد الحارث لن يكونوا عونا لنا.

ضاقت عينا الملك، و قال : أمتأكد من قولك يا لبيد ؟ فنحن الأن نسمع حديثك، و عليه نبني دعائم هذا العرش الذي ترى أمامك، و نريد أن نتبصر بشأن نجد.

- مولاى، إن سلمة قد قتل شرحبيل كما قال مالك.

فهز مالك رأسه موافقا، و أكمل لبيد : و معدى كرب يأكل التمر، و هو على الحياد من العراق و الشام، و لا يبالي من يفوز منهما. و أما حجر سيد أسد يا مولاى، فإنه قد قتل على يد قومه، فقد انقلبوا عليه و قتلوه في عقر داره.

فتعجب الملك و الحاضرون، و قال الملك : و ماذا فعل ابنه امرؤ القيس ؟

فقال المنذر : امرؤ القيس، أليس هو الملقب مجنون ليلي يا مولاى ؟ إن له شعرا يتغنى به كل أهل نجد و الشام، و العرق و أقاصي الجزيرة و قد سمعت به.

فقال لبيد : إنه كان غائباً لما قتل والده سيد أسد، فأخذ يطوف البلاد و يكلم القبائل، ليطالب بثأر أبيه من قومه. و لكن أحداً لم يُجره، إلا أميرا في تيماء رحب به، فنزل عنده امرؤ القيس و وضع سلاحه و متاعه، و عاد بجوب الآراض يطلب ثأر أبيه، و هو يعلم أن غريمه بنو أسد أقوياء، و لا قبل له بهم.

فقال الملك :بئس القوم يقتلون سيدهم و يشربون دمه، ثم يولون عليهم الغريب و المعتدى.

فقال القيس : إن أهل نجد قوم لا وفاء لهم و لا ملة، فاليوم يولونك عليهم و يبذلون أرواح في سبيلك، و على مر الأعوام و السنين ينبذونك، و يطعنوك بحرابهم و ينسون مكانتك و نسبك. و من يمنعهم من ذلك، و هم أهل القتال و الحرب، فحتي أطفالهم يحملون السيف و يسقون النوق، و نساءهم يضربن الدفوف، و يحرضنهن على الغدر و الإمعان في إسالة الدم.

فنهض الملك و أخذ يجوب القاعة مضطرباً مفكراً، و قد كان يأمل في مساعدة قبائل نجد. و لكن الأمر انقضي و قد حصل سابور على دعمهم و سيفهم، فقال : كنا نريد أن نحصل على حيازتهم و حيادهم، و لكن سابور قد تحرك، و ضرب الأخوة في بعضهم فتقاتلوا و ضعفوا، فسنضرب نحن سابور، و إن جندنا في سبيله الجن سنلاقيه في الحيرة.

و عاد ليجلس، و سأل : كم عدد جنود سابور ؟

فرد لبيد : ستون ألفا يا مولاى، و يزيدون.

- مِن مَن يزيدون ؟

- الفيلة يا مولاى، تعادل الواحدة منها ألف فارس.

فقال الملك : أما الحرب فنكمل حديثها بعد ساعة، و أم الأن نفتح باب الجود و الإحسان، فقد رأينا ظبية و لمسنا إخلاصها بيدينا، و وفاء وائل بن بارف.

ثم نظر مبتسما لوائل، و قال : نسألك يا وائل رأيك في المنذر ابننا.

فبغت وائل و قال بهدوء : نعم الأمير هو، المخلص للعرش و رافعا لواء الملك.

فتبسم المنذر، و احمرت ظبية، فقال الملك : لقد خطبنا بالأمس ظبية للمنذر، فقالت رأيي هو رأي مولاى وائل، فقل كلمتك يا وائل، أترضي أن تمسي ظبية زوجة للمنذر.

فرفرف قلب وائل فرحا، و قال : لن أجد زوجا أعز علي من ابنتي إلا المنذر، فهو مولاى و سيدى.

فقال الملك : و الأن يا ظبية لقد وافق وائل، فهل ترضين الأن.

فنزلت دموع ظبية، و قالت : مولاى إني لا أرجوا إلا رضاك، فمن أكون حتي تسألني ؟

فقال الملك : و لما البكاء يا ظبية ؟ فهل تغير قلبك على المنذر ؟

فقالت : بل هي دموع الفرح و الرغبة في الوفاء يا مولاى.

فقال الملك : إذا قومي و صافحي المنذر، فأنتما مخطوبان الأن.

فتصافح العاشقان، و التقي النظران و هدأت العواطف القلب. و مشي المنذر فقبل يد الملك ممتناً و سعيداً، و بارك لهما الملك و وائل و قيس و اليفع أيضا، و علت وجوه القوم الفرح و السكينة. إلا عروة فقد ظهرت ابتسامة المكر على شفتيه و بارك لهما أيضا. و أما حمزة فقد فرح لهما، و إن كان في قلبه شعر بحزن على ابنته كوكب

المنكوبة.

ثم قال الملك لزبيد : سنرى إن كان ظنك يصيب يا زبيد ؟

فضحك زبيد و قال : يا لبيد ارأف بي فقد يطير رأسي الأن.

ضحك الملك و لم يفهم لبيد، فقال الملك : يا لبيد لقد كشفت خيانة إياد، و حفظت حياة أميرتنا زبيبة، و خاطرة بحياتك في بلاط سابور، و حفظت في قلبك الوفاء و الحب لنا، أفلا تطلب جائزتك يا لبيد ؟ فنحن نرغب أن تتدلل علينا.

فقال لبيد : مولاى، حسبي رضاكم و قد أغرقتم علي بالنعم.

فنظرت زبيبة إلى الملك تستشف ما في عقله، فوجدته يبتسم فقال لها : يا زبيبة أرك في الزواج، قولي رأيك و لست بحاكم إلا بموافقتك.

فقالت زبيبة متحيرة : مولاى، حسبي أن يكون حائزا على رضاكم، و لكني أرغب أن أعرف من هو؟

فقال الملك مستغرباً قولها : إنه سيد عشيرته يا أميرة الحوران.

- نعم الرجل هو، و بعد.

- و هو حامل سيف الملك، أعرفته ؟

فخفق قلب لبيد، و نظر للأميرة.

- إذا هو الأمين، و المخلص لعرش مولاى.

- و قد حمئ و صان حياة أميرتنا.

ادعت زبيبة الاستغراب، و قررت أن تسمع رأى لبيد بصراحة، فقالت : حسبه أن يحصل على رضا الملك، فربما كان ذلك وسيلة يا مولاى.

فصحك الملك مستمتعاً و قال : إذا نسأله عن ذلك، يا لبيد لدى الأميرة كلمة لك.

فتبسم لبيد و قال : اسألي يا أميرتي فأنا خادم الأمين.

و نظر إليها فرمشت، و قالت بثقة : فماذا يثبت لي ولائك لمولاى الملك ؟

فتعجب الملك، و قال : أبعد كل ذلك لم ترضي الأميرة ؟

فقالت : مولاى، لقد سألت و أريد الجواب.

فقال لبيد : الجواب يا مولاتي في الصدور و الأيام تثبت ما أقول، فانظري لِعيني أترين

غير الحب و الوفاء ؟

فعلقت نظرها به و قالت : إني أرى الإخلاص في عينيك، و لكننا نراه كذلك في عيون الغادرين.

فقال الملك : و الله إن رأسك سيطير يا زبيد.

فضحك زبيد و سكت، و أما لبيد فقد أحس أن الأميرة تستخف به، فقال : و الله لو لم يكن هذا السيف لمولاى الملك، لغرسته في صدري الأن، لترى بعينيك عمق صدقي و أمد رجائي.

فسكتت الأميرة، أما المنذر فقد أحس أن النار تلتهب في البلاط. و علت ابتسامة خجل على وجه الأميرة، و قالت : لقد رضيت بما يرضي الملك، فلبيد مخلص و صادق في قوله.

فقال الملك ضاحكاً : و الأن ننظر في أميرنا قيس، فمن يعرف فتاة تليق به ؟

فقال قيس : حسبي أن أرى المنذر و اليفع في هناء، و الأميرة قد عادت لها ابتسامتها الفتانة. و أما أنا فكلي لك يا مولاى، و لست مفكرا في ذلك.

فقال الملك : و متي يحين الوقت لننظر في أمرك ؟

- عندما يحين من القدر التفاته رضى علينا يا مولاى.

فقال الملك : لن نطيل في الجدال، عند العودة من الحرب تزف سلمي لليفع و ظبية للمنذر و زبيبة للبيد إن عدنا أحياء. فقم يا لبيد لتصافح خطيبتك.

فتصافحا و همس لبيد لها : لقد كدت أفقد حياتي يا زبيبة، أتهزئين بحبي، و أنت أعلم الناس بسبب هذا الخفقان الذي يتردد في قلبي.

فقال خافضة رأسها : للمحب حق العتاب و الغضب، و لكني أرت أن أطمئن قلبي.

فضحك لبيد و عاد ليجلس، فقال الملك : أما و قد فصلنا في أمور الغرام، فنريد الأن التحدث في شأن الحرب و الرجال..

فخرجت النساء من القاعة، و الأميرة لا تفارق وجهها الابتسامة، و ظبية التي تكتمت من الخجل و الفرح مشت مع الأميرة، و جلستا مع سلمي و الوصائف يتحدثن و يباركن لهن.

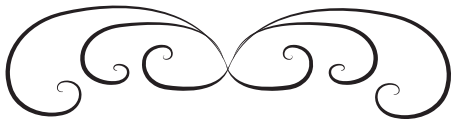

{29}

- سمعنا أن لسابور أفعالًا غريبة يا لبيد، أتعرف عن ذلك ؟

- إن القول صحيح تماما يا مولاى، فإن سابور لديه عدة زوجات، و كل منهم عندما يتزوجها يوشمها بوشم في يدها يا مولاى.

- عجيب ذلك، و لما يفعل ذلك ؟ أ يوشمهن كالنوق و الغنم ؟

- لا يا مولاى، غير أنه يأخذ معه نساءه في حروبه فيخاف أن يسبن، فيعرف الناظر لهن أنهن زوجاته، و لكن الاعجب يا مولاى ما حدث في حربه مع بنى بكر، لما لم يطيعوه يا مولاى.

- و كنت في هذه الحرب يا لبيد ؟

فقال لبيد مبتسما : نعم يا مولاى، و قد شهدت على ذلك بنفسي.

تنبه الملك و لمعت عيناه، و قال : فحدثنا عن الخبر و لا تنسي منه شيئا يا ابن حمزة.

مد القوم و رجال البلاط أعناقهم ليسمعوا حديثه، و أنصتوا.

- خرج سابور مع جنوده و بعد عشرة أيام وصل لجبل في النجد، و قيل أن بنى بكر في مكان يدعى أواره، بلد في اليمامة لا يبعد عن الصعاب، فسار إليهم و التقوا هناك، و اقتتلوا قتالًا شديداً، فهزم بنى بكر و أسر يزيد بن شرحيبل، فقام سابور بقتله و قتل معه كل من أمسكهم على الجبل، فسال الدم و لكنه تجمد. فقالوا له : صب عليه الماء ليصل الدم للحضيض. ففعل سابور ذلك، فنزل الدم يجرى كالنهر. ثم أمر بالنساء

فحرقن يا مولاى. و هذا منتهي الطغيان و الاستبداد.
فقال الملك : و سلمة بن بنى تغلب، فماذا جرى معه ؟
- لقد قتل في ذات اليوم، لأنه لما قتل أخاه شرحبيل و ندم على ذلك، ذهب لبنى بكر و مكث معهم، فلما جاء سابور اقتتلوا بنى تغلب و بكر ضد سابور، فهزم الاثنان و سالت الدماء، حتي تخصب التراب و نما الزرع العشب أحمر مخصبا.
فقال وائل : و عند ذلك انقلب بنى أسد على حجر و قتلوه، فخرج امرؤ القيس يبحث عن ثأر أبيه.
هز الملك رأسه و غرق في لجة التفكير، فخطر له خاطر فقال : لقد بعثنا صفوان بن عمرو النشبي منذ شهور ليتقصى أخبار نجد، و يستميل الأمراء الأربعة و لكن خبره غاب و لم عنه شيئا.
فاهتز مالك و تصبب العرق من جبين، و غمغم لبيد : مولاى، لقد عرفت خبره أيضا.
تصلب فك الملك، و عرف في نبرة الخوف هذه نعي صفوان رسوله، و لكنه سأل : قل الخبر يا لبيد فـبنوا عمرو ينتظرون عودة ابنهم بلهفة، و الملك أيضا ينتظر عودته.
فقال لبيد بهدوء : لقد أمسك به جواسيس سابور في نجد يا مولاى، فقاموا بقطع أطرافه و بعثوا به لسابور، فمثل به في العراق و طاف به الحيرة و رماه في الفرات. لقد رقد صفوان بن عمرو في الفرات يا مولاى، في سبيل الملك.
سمع الرجال تصاعد زفرات الملك، و اهتزت يده و قال : أعد قولك يا لبيد، أفعلها سابور ؟ أقتل صفوان يا لبيد ؟
فقال لبيد : نعم يا مولاى، لقد فعل و الله، و كان صفوان مثال الرجال النبيل الثابت الجنان. فو الله على كل ما حصل لم أسمعه يبكي أو يصيح، بل كان مبتسما يا مولاى، و استقبل الفرات بصدره كالأبطال.
فأخذ صدر الملك يعلو و يهبط، و قال زاعقا : يا ليث أدع بنى عمرو النشبي، أدعهم يا ليث فويل لي لقد رميت برجالي في الفرات.
و أخذ رأسه بين يديه و استغرق في التفكير.
و بأسرع من البرق جاء ليث قائلا : مولاى الملك، عشيرة صفوان بن عمرو النشبي قد

حضروا، يريدون أن تأذن لهم في الدخول.
و سمع الرجال أصوات العويل و همهمات الرجال، فقال الملك : ليدخل علينا بنو عمرو فهم أحب علينا اليوم من أنفسنا.
فدخل وَالد صفوان المغدور به، مع بعض الرجال العشيرة، و قد ظهر على وجههم لون الكآبة، و قد عرفوا ما وراء هذه الدعوة المستعجلة. فلما مثلوا بين يدي الملك نهض لهم الملك. و لم يكن الملك لينهض إلا لأمراء الروم و عظمائهم. و سلم على عمرو والد صفوان الذي قال : اسألك يا مولاى عن صفوان، فهل قتله سابور عامل الفرس ؟
فقال الملك و قد اخضر وجهه حنقا : نعم يا أبا البسالة، و قد كان دمه برهانا على وفائه للعرش الضبعي و حفظه لدم عشيرته.
فظفرت من عيني عمرو دمعة حزن على ابنه و قال : و الله لو كان عاد حيا ذليلاً أو هارباً لكنت أعدته ليموت، و قد كتب عليه أن يموت في الحيرة، و يشرب الفرات دمائه الزكية.
فسمع الملك عويل النساء و صراخهن فاهتز قلبه، و علم أن زوجة صفوان و أمه و أخواته و سمعن قول الملك، فارتعش جسده تأثراً، و قال بصوت عال : لله در صفوان، فقد ملئ الفرات بجثث الضبعين. فو الله لأردن دم صفوان بدم سابور الغادر، و لا أكون الملك عرين، فعلى بالسيف يا عمر.
فتقدم عمر و قدم السيف للملك، فأمسكه بقوة فلم يكد يقول كلمة، حتي وقعت عينه على فتى في العاشرة من عمره، قد دخل محمر الوجه و صرخ قائلا : أنا عقيل بن صفوان بن عمرو، و جئت لأكلم الملك.
فنظر الملك و رجال البلاط إلى هذا الفتى الثائر، ثم قال الملك : أنا الملك، فتعال يا ابنى، و اشترط علينا يا ابن صفوان.
فنزلت دمعة من عين الفتى، و قال : فليبعثني الملك لسابور، فأغرس خنجري في قلبه و أرتوى من دمه.
فقال الملك : بل قل غيرها يا ابن صفوان، فالملك لا يرسل الفتية الصغار.
فاحتقن وجه الفتى و تقدم رافعا رأسه، غير مبالي بوجود الملك أمامه : أما أن الملك لا

يرسلني، فإن الدماء في عروقي لا تهدأ، حتي تجُرني قدماي إلى بلاد سابور. بل الملك نفسه لا يستطيع أن يمنعني من ذلك.

فبهت القوم من شجاعة الفتى، يُبْديها رغم يتمه و أكبروا ذلك، فرفع الملك سيفه، و قال ناظرا إلى الفتى : و الله لا أقبل بدم صفوان إلا دم سابور، و بيننا يوم أرى غباره بين عيني الأن.

ثم قال : أقسموا ألا يضيع دم صفوان.

ففعل الكل مثل الملك، و رفعوا سيوفهم و أيديهم و أقسموا كما فعل الملك. و كان من عادة الملوك إن ندبوا أو أقسموا، للرجال أن يفعلوا ذلك ورائه. و قال الملك للفتى: تكون من جنود الملك لو أردت، و لكنك لا تخطو خطوة لسابور دون علمنا.

فقال الفتى : و أثأر لوالدي يا مولاى.

- نعم تفعل، بل و نعطيك سيفا تجرده في سبيل الثأر و العرش، فما قولك ؟

فركع الفتى و بكي بكاء مريراً تقطع له قلب الملك، فتقدم الملك و احتضنه و قبل جبينه، قائلا : و الله إني أرى جبين صفوان و روحه فيك يا عقيل، فاذهب الأن و لنا لقاء مع سابور قريبا.

و خرج الرجال فوصل الخبر لنساء القصر، فأخذت سلمي تبكي و تنوح، و لما لا تفعل فـصفوان ابن عمها و قد تربت معه كالإخوة، فقال الملك : فلتذهب نساء صفوان لزبيبة فلهن الفضل علينا بعد موت صفوان.

{30}

اتسعت عيناه دهشه، و مد بالرسالة لأحد ندمائه، فقرأها و ارتسم على وجهه تعبير ساخر، و أخذت الأيدي تتلقف الرق حتي عاد لسابور، و قال مبتسما : بما تشير علينا خاصتنا، بعد قراءتكم لهذه الهبة السماوية ؟

فقال أحد الندماء : إنها إما فخ ينصبه لنا عرين، و إما هدية من الله لنا.

فاكتسي سابور ملامح الجد، و قال : أين الرسول ؟ علي به.

فدخل رجل مليح الوجه جامد الملامح، حتي انتصف بلاط الملك العراقي فركع و قال : سلام يا ملك العراق.

فابتسم سابور و قال : سلام يا حامل الرسائل، عرِفنا من تكون من العرب ؟

فقال الرجل بثقة : من عرب البادية.

- فما اسمك ؟ و من أي عشيرة أنت ؟

- لم أعرف لي عشيرة أنتسب لها، و اسمي نضال.

- أنت من الصعاليك إذا.

- لا ذنب لي إن كان حملي صعباً على من وَلدتَنِي، و لكنها رأفت بي فلم تطمرني في التراب.

- و لمن أتيت يا أخ العرب ؟

- أتيت أساعدك على ارساء عرشك، و بناء أعمدته في الشام.

فلمعت أعين القوم بالضحك، و قال سابور : أكرم به من هدف نبيل، و أي شأن لك عندنا ؟

- أما الشأن فليس لي، بل لمن أرسلني.

- ألا تذكر لنا من أكرمنا بإحسانه، ليرسلك إلينا من بين الأجمعين.

أحس نضال بلهجة الاستهزاء في حديث الملك العرقي، فقال : هو من خاصة عرين ملك الشام، و أحسنهم مقاما و أرفعهم شأنا.

- فانسبه لنا لنرى شأننا معه.

ثم ابتسم ابتسامة واسعة تهفو لسفك الدماء، و قال : و إلا رميناَ بك و رسالتك في الفرات.

ارتعش نضال من تلك الابتسامة الساحرة، التي تخفي رغبة القتل في قلب صاحبها، و قال : لقد أوصاني بالكتمان يا مولاى، و قد عهدت منه رغبته في مساعدتك لبلوغ غايتك و نيل مرادك.

فهدأ سابور هدوء يسبق العاصفة، و قال : ليس من سبيل لكتماني بالاسم، فسنعرفه لاحقا، و بما أمرك سيدك ؟

- بنقل رساله لملك العراق و سيد الشرق، بأن المخلصين له في الشام، سيمدونه بكل ما يلزم، ليضع يديه على عرش ملك الشام.

- نراك تذكر ملك الشام، و لكن لا يلبث الزمان حتي يصبح في الشرق ملك وحد، و هو ملك العراق. و نحن نحب الكلام القليل، و اللسان الفصيح، و لكن دون تكليف، فاعمد للصدق و إلا قطعنا لسانك هذا.

حبس رجال سابور أنفاسهم، و عرفوا الموت يخطوا بهدوء نحو نضال، فقال ولى عهده : و هل عجز ملك العراق، حتي يطلب النصح و المعونة من رجال الشام ؟

فقال نضال : لا يا مولاى الأمير، و لكن الرجل الحكيم لا يرد لسان النصح، و يد المعونة الممدودة إليه.

فقال سابور : نراك عدت لفزلكة الكلام و تلوين الحديث، ألا فاعلم أنَّا نأخذ الشام بحد السيف، و نخلع الرداء الكاذب الذي يرتديه عرين عامل الروم مدعيا أنه ملك.

ثم أشار على الجلاد فتقدم بسرعة و رفع السيف، و هوى به على عنق نضال. فسال دمه على البلاط سابور، ثم سحبه مع بعض العبيد و رموه في الفرات. فراه بعض البحارة فلم يبالوا فقد كان مألوفا لهم رؤية الرجال ترمى في الفرات، و الماء يتلون اللون الأحمر القاني ثم يختفي رويدا رويدا.

عاد سابور يقول لندمائه و رجاله : كيف أمسى الجيش يا قائدنا ؟

فرد قائد الجيش : أمسى جاهزا لدك قصر الشام، و الجنود ينتظرون أمرك ليتحركوا.

- و هذا ما نريد، و جهز الأفيال و لا تنسى الفيل الأبيض فهو أحبهم لنا.

- نعم يا مولاى، فمتي تخرج لملاقاة عامل الروم.
- نخرج عندما يخرج لنا، فنحن نريد أن نهزمه في أرضنا، ثم ندخل على الحوران دخول الفاتحين الظافرين، و لا بطيب لنا النوم حتي نرى سماء حوران و الشام، و قد أمست لنا لا يطير طير فيها إلا بإذننا.
- و هذا ما سيكون يا مولاى، عامل الروم أضعف من أن يقف في وجه مولاى ملك العراق.

فغضب سابور و قال : لا تطل في التجمل لنا، لقد عرفنا قوة عرين، و لمسنا بأيدينا ثباته و جلده و سوف نثأر لحربنا السابقة، بل و سوف نثأر لزوجتنا التي أمست جارية في قصور عامل الروم، هذا الرجل الذي يأكل علف الحيوانات و ينام تحت الخيام، و فوق الأعلاف و القش و بين المواشي.

فسكت القوم و قد رأوا عينا سابور تحمران، و وجهه ينتفخ حتي أصبح أكثر سواد من الليل.

فقال ولى العهد : إن في هذه الرسالة فائدة، و إن كانت تدعوا للضحك، فربما يستعملها مولاى الملك.

فلمعت عينا سابور و نظر لولى عهده، هذا الفتى الذى ورث الخبث و الذكاء عن والده، و قال : بما تشير علينا يا ولى العهد ؟

فضحك ولى العهد، و قال : أشير على مولاى، بالنظر في أمر سيهز الكرسي الذي يجلس عليه عرين سيد البادية.

فأنصت له سابور و صفق بيديه فرحا، و قال : نعم الرأي هذا، إنها هبة من الله و أي هبة.

انتقل بلاط الملك إلى البصرى في أحد قصوره هناك، و امتلأ البر و الجبل بالجنود، فلم يمض شهر حتي توافدت العشائر مع الرجال، تجر السيف للحرب و استعداد لبذل الأرواح. من الحوران، و البلقاء، و البحرين، و الحجاز، و نجد بعض عشائر اليمن، و من فلسطين و ما جاورها. و من كل نواحي الجزيرة الخاضعة للملك الشامي. و قد قرر الملك أنه سيكون على رأس الجيش يقوده، و أن حمزة بن ثعلبة نائب الملك، حتي يعود ظافرا من الحرب. و قرر الملك انه سيلقي سابور في مكان فسيح يدعي عين أباغ، فيذهب بجيشه الجرار و يستقر هناك، حتي يخرج له سابور بجنوده.

و أما سلمي فكانت لا تنام و تنهض إلا على الكوابيس و الأحلام، فعقلها مضطرب. تخاف غدر عروة في الحرب، و قلبها يخاف أن يمس اليفع بسوء، فكان في أحد الأيام أن آتي اليفع ليزورها فوجدها محمرة العينين شاحبة الوجه، فقامت تسلم عليه فلما جلسا معا قال لها : مالك أراك في هزال و شحوب ؟

- إني أخاف هذه الحرب يا مولاى.

فقال اليفع و لم يجد سببا لخوفها : أتخافينها علي يا سلمي، أم أتخافين أن تطول أيامها.

فقالت : بل أخاف عليك من صدقاء الغادرين، و الأعين الحاقدة يا مولاى، إني أرى الغيوم تتبلد في الأفق، و صفحة الفضاء تزداد سوادا كلما قرب موعد الحرب.

فتبسم اليفع، و قال ليخفف عنها : ليس بين خاصة مولاى أصدقاء غادرين، و لكن القلوب التي تعرف الحسد و البغض، لا تعرف أن تمد يديها بالسوء، لا تخافي فلا تمضي الحرب و يظفر مولاى الملك، حتي نمسي زوجين و يهنئ عيشنا.

فنزلت دموعها فحار اليفع، فأخذ يخفف عنه و يصف لها حبه و غرامه، حتي عادت لها ابتسامتها و ضحكت رغم المخاوف التي تغللت لقلبها، و قالت : إني أنتظر اليوم الذى يجمعنا ظل الهناء، و يضع مولاى الملك يده على رأسي و يرضي بي وليه للعهد، نعم يا اليفع و لكني لا أرغب إلا أن تعود سالما، و لن يرتاح بالى و تكن مخاوفي حتي أراك مع مولاى و الأمراء ظافرين.

- ليس لدينا سوى الصبر نرتديه يا حبيبة القلب، حتي تنتهي الحرب و تبرد حماها

الحارة. أتخافين من غدر الغادرين في وضح النهار ؟ و لا يستطيع ذلك أحد و أنا موجود.

- لا اخشي الغدر و الخيانة في النهار، و لكني أخاف أن يسدل الليل ستارته المظلمة، فلا يأتي الصباح حتي نرى الدماء قد راقت، و الرقاب قطعت.

فقال اليفع بحنان : إنها أوهام يا سلمى، فلا تدعى هذه الهواجس تعكر صفو هذه الأيام.

- سأتركها يا مولاى، على أن تعاهدني يا مولاى، فلا تترك خيمتك مفتوحة كي لا يتخطفك الموت.

فتبسم اليفع و قال : لَكِي عهدي بذلك، و سأحرص على نفسي، فاخرص أنت على نفسك و اطمئني.

و خرج اليفع من عند سلمى، و قد شغل عقله بمخاوفها و لم يدرى سببا لها. و لكنه رأى في طريقه قيس فتبسم له، و مشيا معا، فقال اليفع: إن قلب سلمى مظلم أكثر من سواد الليل يا قيس.

- و عرفت السبب وراء ذلك ؟

- لا يا أخي، فمن يدرى بقلوب النساء.

فضحك قيس، و قال : لا تدعي الجهل يا اليفع، فكلنا نعلم قدر خوفك على سلمى، و لكن النساء كما يقال يشعرن بالخطر قبل حدوثه.

فتحير اليفع و قال : لا أجد معني لخوفها، فالدمع يسبل من عينيها كلما رأيتها.

فغمز له قيس : عليك إذا إن تنسيها أحزنها يا أخي، و ارأف بها، فإن قلوب النساء أخف من الهواء و أغور(أي أعمق) من الأبار.

فتعجب اليفع، و قال : لا أحد يغلبك في فصاحة لسانك، فكأني بك عاشق يصف أحوال حبه و أهاته.

فقال قيس : أنا ؟ لا يا أخي أنا لست من أهل الهوى و لم أدر ما طعمه، و لكني أسمعهم يقولون ذلك، و أبلغ دليل هو أخونا المنذر و الظبية.

فضحك اليفع و قال : صدقت، فبعد المنذر و صراحته في حبه ترى الأعاجيب.

فبرز من أحد الأعمدة صوت يقول : إن الكلام من رواء الظهر لصفة مذمومة، و لكني أعف إن أحطت علما بالذي يقال عني.

و ظهر المنذر و تقدم منهما، فقال قيس : لا تسئ الظن بي يا منذر، و إنما كنا نطيب ألسنتنا بذكرك.

فتبسم المنذر و نظر إليه اليفع، فقال المنذر : أراك مشغول البال يا أخي، فما الخبر؟

فظهر الحزن في عيني اليفع و تمتم شيئا، و لكن المنذر فهم ذلك فوضع يده على كتف اليفع، و قال : دع الماضي لحاله، فبعد أيام تأتي الحرب و نرى ما يكون، إن مولاى الملك ينتظرنا الأن في مجلسه.

و مشي اليفع و سط أخويه، و قد ملئ صدره بالدفء و الحب لقيس و المنذر. فبعد هذا السنوات من عمره، لم يخطر بباله يوما أن حنان و عطف إخوته يحمل هذا الكم من السعادة و الهناء، و هامت ذاكرته بأحداث الغابة :

" فبعد أن خرج من عند الملك ذهب ليرى سلمى، فوجدها تبكي و تنوح ابن عمها صفران فأخذ يحدثها و يلاطفها، و لكنها كانت قد أعياها البكاء فترنحت و سقطت على الأرض، فهب اليفع يقلب رأسها بيده و يناديها بأعذب الأسماء. و لكنها لم تكن تفيق، و بعد ساعة فتحت عينيها فوجدت اليفع فوق رأسها يمسح جبينها المتعرق، و قد حلت عليها الحمى، و الأميرة تمسك بيديها و تناديها : سلمي حبيبتي.

قالت سلمي بوهن : مولاتي، مولاى.

فقال اليفع : سلامة عليك يا سلمى، لقد أخفتنا.

فغمغمت : مولاى اليفع، هذا ليس حلما ؟

فقال و قد بدآ على وجهه الحزن و الخوف : نعم، إني اليفع و ليست مفارقك حتي تفتحي عينيك.

فعادة للإغماء ثانية، و ظل اليفع و الأميرة جنبها لعدة أيام، و هي تهذى و ضعف جسمها، فعادتها ظبية و قيس و المنذر و الملكة. فكانت تتمتم اسم اليفع و تعود للنوم ثانية، و الأميرة ترى بعينها الحب ينمو و يزدهر و يزداد عمقا بينهما. بل رأت اليفع قد نظر للحياة نظرة جديدة مليئة بالوفاء و الإخلاص. ثم بعد أيام عادت

لسلمى صحتها و تماثلت للشفاء بسرعة، فاقترح اليفع أن يصحبها معه للصيد، قبل ذهاب الملك لبصرى. فوافقت و بعث اليفع للمنذر و قيس يدعوهما. فجاء المنذر و دخل على جناح الأميرة فوجد زبيبة و سلمى و اليفع مبتسمين، فقال : كيف أمست سلمى هذا اليوم ؟

فقالت : أمسيت بخير بفضل عناية مولاى الملك، و مولاتي الأميرة، و الأمراء. و كيف لا أكون كذلك.

فصحك المنذر، و قال لليفع : حمد لله على سلامة سلمى، سمعنا أنك طلبت أن نحضر لأمر هام، فخيرا يا أخي.

فقال اليفع، و إن كان قلبه خائفا أن يرفض المنذر : أردت أن نخرج للحراء و نصيد هناك، و أرجوا أن تخرج معي يا منذر.

فسكت المنذر و رمش غير مصدق، أ اليفع يدعوه ليصيد معه ؟ و رفرف قلبه فرحاً، فلم يكن اليفع يخرج لرصيد إلا مع عروة سابقا، فقال متبسما: و الله لا أرفض لك طلبا، و إن قلت نخرج خرجت، و إن قلت نظل فعلت يا ولى العهد.

فتبسم اليفع و ظهر البشر على وجهه، و قال : و الله قد خفت أن تخيب رجائي.

فأظهر المنذر الاستغراب و لكنه لم يقل شيئا، فنظرت الأميرة إلى اليفع، ففهم مغزي ذلك و ضحك، قائلا : و ندعوا لبيد أيضا، كي لا تمل الأميرة.

فغضبت الأميرة و قالت : بل تدعوه لأني لا أخرج بدون أن أحيطه علما.

فقال المنذر : هنيئا له برضي الأميرة، فليس كل الأحبة ينالون هذا الرضى.

فخجلت الأميرة، و قالت متجاهلة تعليق المنذر : و من يذهب أيضا يا ابن أخي ؟

فقال اليفع : ندعو ظبية و إن شاءت المجيئ، و أخانا قيس و زبيد أيضا.

فقال المنذر : لا يطيب لنا أن نخرج للصيد بدون زبيد، فهو أمهر من حشد السنان و ربط الرماح.

- صدقت يا منذر، فـزبيد قائد الحرس و سيد السلاح، إنه نعم الرفيق.

فدخل العبد يقول : مولاى قيس يطلب الإذن بالدخول.

فقال الأميرة : أدخله.

فدخل و سلم و جلس قائلا : لأى أمر يجتمع القوم ؟
فقال المنذر : لنختار لآخينا قيس عروسا تليق به.
فعجب قيس، و قال : أتتأمرون على قيس، فربما كان في قلبنا غير ما في عقولكم ؟
فقالت الأميرة فرحة : و أخير قد برح لك الغرام، فاليوم نرى ما يكون منك.
فقال اليفع : دع عنك كلامهم، فنحن نتأمر و لكن لشأن مختلف.
فننظر قيس إلى أخيه الكبير، و رأى اليفع و كأنما يراه لأول مرة، فظل صامتا و لم يجب.
فتدارك المنذر الأمر، و قال : لقد دعانا أخونا ولى العهد لنصيد في الحراء، فماذا تقول أترافقنا يا قيس ؟
فضحكت أعين قيس، و قال : و كيف أرفض إن كان اليفع حاضراً.
فضحك اليفع و قال : حسم الأمر، إذا نخرج بعد يومين.
فقال قيس : و لما لا نخرج غدا ؟
- لأن مولاى الملك قد بعث بزبيد في مهمة، و يعود في مساء الغد و نريده أن يكون معنا.
فوافق قيس، و مازال عقله مشغولًا بالتغير الذي طارئ على اليفع، فأصبح يكلم أخويه و يبش لهما و يضاحكها، و نظر إلى الأميرة فغمزت له و أشارت لسلمى، ففهم قيس الأمر و ابتسم بحبور. و أخذ الإخوة الثلاثة يتسامرون و يتحدثون عند الاميرة مدة، ثم عاد كل لعمله و في قلب كل منهم خوف و فرح، فرح بتقربهم من اليفع، و خوف من الأسرار التي تكمن وراء هذا التغيير.

{31}

بزغ الفجر على الحوران، و أخذ العبيد و الغلمان يعدون العدة لخروج الأمراء للصيد.

و ذهبت الأميرة لمجلس الملك و تقدمت وصيفتها فاتنة إلى ليث قائلة : الأميرة زبيبة ترغب في رؤية الملك.

فقال ليث : إن الأميرة تدخل دون استئذان.

فجاءت الأميرة بعد أن سمعت قول ليث، و دخلت على الملك فوجدته جالسا مع حمزة، و عاصم، و عمر و بعض الرجال يتناقشون في أمور الحرب. رأها الملك فنهض، و أشار على القوم ليخرجوا و قال : لقد أشرق الصباح بوجه أميرة البلقاء.

فضحكت و قالت : و أصبحت بخير في رضاك يا مولاى.

- اجلسي يا أميرتي، و أخبرينا لما قدمت في هذا الوقت ؟

- ألا يجوز أن أزور مولاى، و سيد نعمتي ؟

فتعجب الملك و قال : بلى، و عليك أن تذكري أن الملك يعرف من كلامها هذا أن في الأمر شيئا.

فسكتت زبيبة و تحيرت كيف تبدأ الحديث.

- أفصحي يا زبيبة، و لا تدعي الأمر يغضن حبينك، فهل تريدن أن نقرب موعد الزفاف؟

- لا يا مولاى، و لكن الأمراء يخرجون للحراء اليوم.

- نعم، و أنت ترافقينهم مع لبيد.

- يسعدني يا مولاى رؤيتهم و قد عادت لوجههم السعادة، و أثار نعمتك و رضاك تظلهم أينما ذهبوا، و لكني أتوجس الشر يا مولاى.

فقال الملك بهدوء : إن توحدهم يا أميرة، يجعل النفوس الحاقدة تلتهب كرها و بغضا، و لكننا لا نفعل شيئا حتي نرى و نلمس بأيدينا هذا الشر.

تعرقت يد زبيبة، و قالت : فإن لمست هذا الشر، أتقطعه و تكفينا السوء و الأذى.

- نعم يا أميرة، و لك العهد منا.

تنفست الأميرة بعمق و قالت :

مولاى، متى تخرج للقاء سابور ؟

فلمعت أعين الملك ببارق غريب، و قال بصبر :

بعد شهرين يا زبيبة.

- إذا إني أسألك يا مولاى، أن تسمح لي أن أحمل السيف و أقاتل معك.

- و أدعك تدخلين لجة الحرب و بحر السيوف و الدماء، أتفكر الأميرة أن تحارب سابور بيديها الصغيرتين ؟

فقالت بلهفة وثقة : بل أقطع الرؤوس الخائنة، التي تبتسم عبر الظلام و تتربص بمولاى و أنجاله.

نظر الملك للأميرة، و رأى العزيمة في عينيها الساحرتين، و قال : أما السيف فلا نأذن لك بحمله، و لكنك تخرجين معنا فتحملين الماء و العسل للرجال.

- و أرش عليهم الأزاهير يا مولاى، و أداوى الجرحى، و بينما أنا في ذلك أجد مولاى الملك، و أولاده، و قد غَرست رماح الشر ألسنتها في صدورهم.

فقال الملك بصبر، لا يخلو من غضب : تلك الأيدي لا تمتد لنا حتي نقطعها، و أما الشر الذى تخافينه، فإن كان قريبا منا فلأننا سمحنا له بذلك، إلا أتظنين الملك لا يعلم بالذي يدور في العيون.

- بل أرى مولاى يرمي نفسه في لجة الحرب و يعدنا بالفراق و العذاب، اقطع رأس الشر يا مولاى، و احذر من أبناء عمومتك.

- الخوف يا أميرة يصور لك الخيانة و الغدر، أ من عمر تخافين ؟

- بل من الذئب الغادر الذي رباه منذ الصغر.

فارتفع حاجبا الملك تعجبا : عروة أم ليث تقصدين ؟

- إن ليث لفارس نبيل كـعُمر، و لكني أحس بالنار تتطاير شرارتها من عيني عروة يا مولاى.

- لربما الحسد قد تراء لك و صَور لعقلك الخيانة، و لكن عروة ابن عمنا و قد منحناه المكانة لدينا، و هو يحضر بلاط الملك و يأكل من يدنا، أترينه يعض تلك اليد ؟

- بل أراه بمزقها، فإنها في نظره يد غول فعليه أن يقطعها.

- إن الأوهام لا تخلق الحقائق، و لكن عروة قد تربي معنا و تحت ظلنا في منزل عمر، فأنى له أن يكن هذا الشر الذي تتحدثين عنه ؟

فلمعة عينا زبيبة و قالت : لقد زرعته بيدك يا مولاى، فهو بذرة نمت حتي أمست أشواكها حارة تلسع الجدار الذي تستند عليه.

فقال الملك و قد فهم ما تقصد بكلامها : و إن كان ما تقولين فيه بعض الحقيقة، أترين أن من الحكمة أن تقطع الأشواك دون أن تلسع أحداً، لا، إنها إذاً تكون مَظلَمَة و نحن لا نحب أن نظلم أحداً، و لكن حسبنا أن يظل الذئب قربنا و تحت أعيننا من أن يتربص لنا في الخفاء، حتي ما قفز علينا قطعنا رأسه و لا يرتفع صوت عندها و ندفن الشر.

فهدأت زبيبة، و لكنها لم تَّرتح فقالت بعطف : مولاى، أعطني العهد و الميثاق، بألا تغفل عينك عن عروة.

زفر الملك و قال : نعطيك العهد يا أميرة، فأكتمي مخاوفك و لا تحدثي بها أحداً، و الأن أخرجي لأنَّ أنجالنا ينتظرون حضورك.

فخرجت زبيبة تغمغم قائلة : و الله إن مولاى قد يخطئ أحيانا في وضع الثقة، و لكن عيني لن تغفل عن عروة.

نادى الملك على ليث فحضر : يا ليث لقد سمعت حديث الأميرة فما قولك، أتشك في ابن عمك و تراه يضمر الحقد لنا ؟

- مولاى، لقد تربيت معه منذ الصغر و لكني لم أرى منه الأفعال الفاضحة بمشاعره و سوء نيته، و لكن في عينيه شرر يا مولاى.

- أراك أيضا تشير لما أشارت به الأميرة، و لكن الأن نرى عروة و نقرر ذلك، أدعه لنا.

فخرج ليث ليدعوا عروة، و لم يكلمه في الطريق فلما وصلا دخل عروة بعد أن استئذن.

- يا عروة، نراك لن تخرج مع ولى العهد للصيد اليوم، أمللت رفقته أم أنك منشغل بأمور لا علم لنا بها ؟

فتبسم عروة : مولاى الملك، لم أرافق الأمير لأنه لم يدعوني لذلك و لكن أحسبه نسيني، و له عذره فالعشاق لا يكادون يذكرون غير أحبتهم و ينسون أصحابهم.

فنظر له الملك ضاحكا : بل نراك تهمل واجباتك يا عروة.

فبغت عروة و قال : أنا يا مولاى ؟ فالعفو إن بدر مني ما يسئ لكم.

- بل ظهر لنا ما هو أكبر من ذلك.

رأى عروة الغضب يلتمع في عيني الملك، فقال راكعا : مولاى، إني عبدك و...

قاطعه الملك : و تجترئ علينا و تطلب العفو يا ابن العم، و قد ظنناك نعم النصير، و لكننا الأن نجزيك بما عملت.

تعرق جبين عروة خوفا، و تابع الملك : قد جعناك قائد الفرسان يا عروة.

فبهت عروة و نظر للملك الذي ابتسم قائلا : و جعلناك تدخل علينا بالسيف، أترانا قد وفيناك حقك يا ابن أسود ؟

- بل أغرقتني في رضاك و نعمتك يا مولاى.

- يا ليث أعطه كسوة القادة يلبسها و أبدأ اليوم باستعراض الجنود يا عروة، اذهب بارك الله فيك.

فضحك عروة و قال : لقد رفعتني للسماء يا مولاى، و لا يسعني سوى العمل على استكمال رضاك.

كشر ليث و لم يعجبه ما حصل، و خرج عروة مبتسما مزهوا بنفسه، فدخل ليث للملك و قال : عجبتُ للملك يطعم الذئاب و هو يرى أنيابها تمتد له ؟

فضحك الملك و قال : أعطيك أمثولة في الدهاء يا ليث، أطعم عدوك من لحمك حتي يطمئن أن فرسته لن تهرب فينقض عليها، و لكن الشباك الذي وضعنه في الطعام سيرد له الضربة.

فتبسم ليث و قال : إن مولاى يرغب أن يرى ما يخطط له عروة في الخفاء ؟

هز الملك رأسه قائلا : لا بد أن يشعر أننا نثق به و لا نشم في أفعاله فيقل حذره و يظهر أنيابه، و عندها يا ليث ويل له من ذلك اليوم الذي نمسكه خائناً.

- و بما تأمرني يا مولاى ؟

- عندما تجول رحى الحرب أنظر عروة، والحقهُ و لا تغفل عينك عنه لساعة.

- أمرك يا مولاى.

عاد ليث لمكانه حارسا للملك، و غرق الملك في لجة التفكير و بعد مدة طلب أن يحضر

القادة ليكموا حديث الحرب و السياسة.

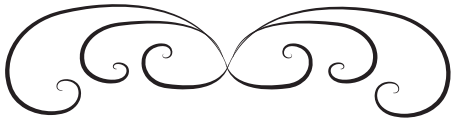

{32}

ركبت سلمى فرسها و ركب اليفع فرسه الخطاف، و مشيا جنبا إلى جنب يتحدثان في طريقهما للحراء. و هي تبعد يوما عن القصر و مشي ورائهم زبيبة مع لبيد، ثم ظبية مع المنذر، و قيس يتحدث مع زبيد، ثم كان هناك أربعة جمال تحمل الخيام و الماء و الزاد، و عبد صغير يسوق قطيعا صغيرا من الغنام في النهاية. مشوا ليوم كامل حتي وصلوا للحراء و وجدوا هناك كهفا وضعوا فيه الزاد و النوق، و ارتاحوا ساعة من عناء الركوب طول اليوم. و ناموا جميعا و العبيد يحرسونهم و النار حولهم تبعد الضباء و الوحوش. فلما بزغ الفجر نهضوا استعداد للصيد، فخرج لبيد و قال أنه سيرافق الأميرة زبيبة : لم نصد معا منذ سنوات يا اميرتي.

ضحكت الأميرة و قالت بتحد : قبل حلول المساء ستجد أني ملئت الكهف بجلود الضباع و حمر الوحش يا لبيد.

فتدخل قيس قائلا : إن كانت الأميرة قد قالت ذلك فاحذر من غضبها يا لبيد، فهي مازالت عنيدة كما كان الحال في صغرها.

فلمعت أعين لبيد و قال ناظرا للأميرة : و لولا عنادها هذا لما...

و سكت فتلون وجه الأميرة و قالت : دع الماضي يا لبيد و لنتسابق في الصيد.

و ركبت فرسها الملثم و انطلقت به، و لحقها لبيد ضاحكا : لقد غضبت الأن و لكني لن أتهاون في الصيد.

و انطلق ورائها، أما سلمى فقد ركبت فرسا يدعي شهاب قدمه لها اليفع هدية و هو أحد أفراسه، فركبته مبتسمة و ركب قربها اليفع على الخطاف و قال لها : فلنذهب قبل أن تصيد الأميرة كل وحوش الغابة.

ضحكت سلمي قائلة : سأسبق الخطاف فلم أرى صيده قبل اليوم.

فقال المنذر و قد اقترب منهما مع ظبية : احذري أن تعودي دون صيد فولى العهد هو أمير الصيد يا سلمى.

فقالت ممسكة بلجام الشهاب : على إذا أن أنطلق قبل أن يلحقني أمير الصيد.

كان اليفع ينظر إلى سلمى و هي على الشهاب تتحدث مبتسمة، فتذكر عروة و شعر بالضيق في صدره، و لكن يداً رَبتتْ على ظهره فعاد من سرحانه : هيا إن سلمى تنتظرك يا أخي.

- رافقني يا منذر لنصيد معا.

فضحك المنذر قال : أذهب مع سلمى اليوم و غدا نصيد معك، فما قولك ؟

- إن ظبية لا تقول كلمة، فهل هي ترغب في الصيد معنا.

فتبسمت ظبية و قالت : نعم، أرغب أن أرى بعيني فراسة ولى العهد، و لكن المنذر سيأخذني لاعلى الكهف البركاني.

ضحك اليفع و قال : المنذر لا يكف من مفاجأتنا.

كشر المنذر و قال : خذ معك قيس إن شئت لكن زبيد سيذهب معي.

و مشي فوق النعامة مبتعداً و غاضبا من اليفع.

و لكن اليفع لم يبالى فقال : يا قيس هيا إن الضباع تنتظرنا.

فركب قيس و مشي مع اليفع و سلمي في جهة مختلفة عنهم، و بقي المنذر و الظبية و زبيد فخرجوا نحو كهف أخر. كان هذا الكهف البركاني يحوى عدة ثغرات صغيرة فيها بعض النقوش القديمة و الرسومات الغربية، فلما وصلوا إليه رأى زبيد غزالا على تل بعيد فهمز فرسه الزباء و لحق به ليصيده، فنزل المنذر عن فرسه و مشى به إلى إحدى الثغرات الصغيرة، التي بالكاد يستطيع الإنسان المشي فيها، فكان ارتفاعها مترين و فعلت ظبية مثله و لحقته. فبهتت ظبية للمنظر الخلاب للكهف ففي الأعلى الرسوم

القديمة توحي بالحضارة البابلية. و تظهر طرق البناء و رسومات للوحوش و أدوات الصيد القديمة. فتبسم المنذر و الظل ينظر إليها مبهوتا بجمالها و هي تمشي ناظرة للرسوم و قد نسيت ما حولها، ثم وقفت عند رسم و أشارت له : هذا الرسم يبدو من عصر مختلف عن بقية النقوش ؟

فاقترب المنذر لينظر إليها، و قال ضاحكا : إنه من صنعي أنا، لقد رسمته لما خرجت للصيد و لم أعرف من أنتِ ذلك اليوم يا ظبية، رأيتك في القصر فتغير لون العالم من حولي و سقطت السماء على الأرض.

فأرادت ظبية أن تداعبه فقالت مركزة على الرسم : أما أنا فلما رأيتك أول مرة ظننتك قائد الحرس، و تساءلت كيف لك أن تهب فرسي لأحد حراسك دون موافقتي ؟

فقاطعها المنذر و قد ضاقت عيناه : أما الفرس فقد أعطيتك الجيداء، لأن من أختارها زوجة لي لا تركب فرسا عاديا، و لكن العزيمة في عينيك جعلتني أهتز يا سيدتي، لقد كنت صيد وسط حلقة من الفرسان الغاضبين و لم أرى أثر للخوف في صوتك، لقد رسمت ما رأيته على هذا الجدار، رسمت الثبات و القوة، لقد رأيتك مثل هذا الكهف مليئا بالحمم البركانية ساعة الخطر، و مليئا بالأسرار و العِبَرْ في جدرانه و تحت أحجاره.

عادت ظبية لتنظر للرسم فكان مضحكا فالمنذر لا يجيد الرسم أبدا، و لكن الرسم كان خليط من مشاعر المنذر وقت ذاك، فحلقت روح ظبية سعادة بهذا الاعتراف تسمعه من المنذر و قد رأت في عينيه ما عاناه كما عانت هي أيضا في أيام الفراق. عندما ظنا كلاهما أن القدر جار عليهما و لا سبيل للقائهما أبدا، لمست الرسم بيديها و نزلت دموعها خديها الزاهين فبُهت المنذر و لم يفهم لهذه الدموع سبباً، فهتف : ليس الوقت للدموع بل الفرح و الأُنس، فلما نزلت دموعك يا ظبية ؟

فنظرت إليه و قالت : مولاى، في البصرى يكمن الموت للمنذر، سأراك تمضي للموت و لا أستطيع لرده قوة أو سبيلا.

فقال المنذر ليبهجها : أما الموت فإن خطفني فلأنكي ذكرته و كأنما ترينه ورائي الأن، لا نعلم ما قد يحدث في لجة الحرب و سط حمام الدماء، فيا حبذا هذا الموت يأتيني في ساحة الشرف.

فقالت ظبية مستجدية : و تنسى غرامي و تتركني لعذابي و لا تبالى.
تبسم المنذر قائلا : أما ظبية فلا أنسى غرامها و لكن عاطفة الغرام تتراجع و تنحني أمام عاطفة الشرف وسط بريق الموت. أترغبين أن يقال أن الأمير المنذر خاف أن يموت و يبتعد عن حبيبته و ترك رجاله يخوضون غمار الحرب ؟
فقالت ماسحة دموعها : بل أفضل أن أراك تقود الرجال لبحر الدماء، و يرميك الموت أمامي لابساً حلة الشرف و الفخار على الحياة في الذل، فتناسى ضعفي يا أيها الحبيب، فإنما هي ساعة ضعف صور لي فيها الخوف صورا مفزعة، أما الأن فقد عاد رشدي و سوف أحمل السيف أيضا و لنرى قضاء القدر فينا.
فتبسم المنذر و قال : و الله قد صدق مولاى عندما قال لقد خسرت الحوران فارسا بطلا عندما ولدت فتاة.
فقالت و قد عاد لها هدوءها : و هل تقتصر الفراسة و البطولة على الرجال، إن من النساء من فعلت ما لا تفعله الرجال و التاريخ يحفظ في سطوره قوة النساء و جبروتهن، منهن كليوبترا و بلقيس و الجيداء و غيرهن.
فقال : و ظبية لا تقل عنهن عزيمة و صبرا، و لكن المنذر لا يسمح لكي بحمل السيف.
فسكتت ظبية و نظرت لعيني المنذر و رأت الجد فيهما فزفرت قائلة : أبعد هذا الحديث تمنعني من حمل السيف ؟
فتبسم و قال : نعم و مولاى الملك بذاته لا يتدخل في قراري هذا، خطيبة المنذر لا تحمل السيف.
فقالت بعناد : و لكنها قد تفعل و تعصي الأمير؟
فقال ضاحكا بخفة : فإن عصت المنذر للحديث شأن أخر، و كننا نسمح لكي بفعل ما تفعله الأميرة.
و بلهفة قالت : و ما عمل الأميرة في الحرب ؟
- تحمل الماء الممزوج بالعسل للرجال و تدوى الجرحي، و تشرف على خيمة الجرحى في مؤخرة الجيش.
فلمعت عينا ظبية و قالت : كلمة الأمير لا رد لها.

- نعم كلمتي لا رد لها، و لكن في تلك الساعة المظلمة التي يبدأ فيها القتال لن ترى المنذر، حتي تنتهي الحرب و تمتلئ الأرض بالجثث. لذا عليك بالصبر و أمكثي قرب الأميرة.

- نعم يا مولاى، سأفعل و أتحلى بالصبر في تلك الساعات الرهيبة القادمة.

ثم خرجا من الكهف و بدآ الصيد، و لما حل المساء عادت الأميرة و قد صادت ثلاث ضباع و حمار وحش، و لبيد صاد خمسة ضباع و غزالين و ربح على الأميرة، و لكنها كانت مبتسمة و لا يبدوا عليها الغضب. و كان اليفع و سلمى و قيس قد صادوا أيضا الكثير من الوحوش، و عاد المنذر و الظبية و لم يصيدا شيئا لأن المكان الذى ذهبا إليه كانت الذئاب قد مرت منه فهربت الحيوانات، و لكنهما أمسكا بذئبين كبيرين و زبيد عاد مع أربعة ضباع صادها و حده، و مضى اليوم الثاني في أُنس و طرب و أخذ العبيد يسلخون جلود الحيوانات و يعدون الطعام، و مضت عليهم في الحراء ثلاثة أيام صادوا فيها الكثير، و لكنهم لم يصيدوا مثل هذا اليوم كثيراً حتي جاء اليوم الأخير في الصيد.

خرج اليفع و المنذر يصيدان و كان اليوم في أوله مضيا فوق النعامة و الخطاف، حتي رأيا ذئبا ضخما يجري على تل صغير ثم يقفز لسهل مليء بالأشجار فركضا ورائه و نزل من الأفراس، و اتكأ اليفع على صخرة عالية و جهز القوس و السهم لضرب الذئب، فقال له المنذر : لا تضرب الأن الذئب، فإن لم تصبه من الضربة الأولى انقض عليك بوثبة واسعة.

فقال اليفع : فإن فعل فأغرس رمحك في قلبه.

و شد اليفع السهم للوراء فسمع الذئب يعوى عواء شديداً فقال المنذر مبتسما : إنه يدعوا أنثاه، سأصيدها أيضا.

و أطلق اليفع على الذئب فاخترق عنقه و انتشر دمه و أخذ يتلوى حتي همد و سكن، فذهب إليه اليفع مبتسما و قال للمنذر : كيف رأيت سهامي يا أخي؟

- أبشع السهام سهامك، فلما لم تضرب القلب أو الصدر ؟

فضحك اليفع و قال : العنق هدف صعب، و على الفارس ركوب الصعاب.

فسمعا عواء قريبا فعلما أن أنثي الذئب قد قتربت فاستعدا لها، و وقف اليفع تحت

التل تماما تحت صخرة ضخمة، و وقف المنذر وراء شجرة مقابلة لأخيه اليفع، وفتح اليفع فمع ليقول للمنذر شيئا و لكن الكلمات تجمدت في حلقه، حينما رأى المنذر يمسك السهم و يوجهه لأخيه اليفع و على وجهه تعبير مخيف، و رغبة في القتل تلمع من عينيه السوداوين. ضغط اليفع على سيفه و تحير في أمره، و لكن المنذر لم يمهله بل أطلق السهم فرأى اليفع ظلا من الأعلى كسحابة، و سمع صوته كالرعد صم أذنيه و صرخ المنذر : عليك بالسيف.

و أمسك المنذر بخنجر صغير في خصره و طعن به الأسد الذي وقف على المنذر بوزنه الثقيل و غرس أنيابه في كتف المنذر، صرخ المنذر متألما و سقط على الأرض تحت الأسد و كان دم المنذر قد اختلط بدم الأسد، و كاد الأسد أن يعض المنذر لولا أن اليفع عالجه من الخلف فقطع رأسه بالسيف، فهمد الأسد و لكن جسده كان مازال يرتعش و انسكب الدم على المنذر فغطاه بلون أحمر. لهث اليفع و غض شفتيه قهراً، كيف شككت في أخي بينما كان يحاول حمايتي من الأسد، تقدم بسرعة و أسقط سيفه على الأرض ليرفع الأسد عن المنذر متمتما و الدموع تتساقط من عينيه خوفا:

أخي، المنذر، لما لم تنبهني ؟

تمتم المنذر و قد سلت قواه منه : لم يكن من وقت لذلك.

ربط اليفع جرح المنذر بقماش و رفعه على كتفه و لكن أنثي الذئب دخلت لساحة المعركة، فأخذ سيفه بسرعة و مازال المنذر على كتفه، فوثبت الذئبة على اليفع و لكن سهما ضربها فسقطت قرب الأسد، زفر اليفع ارتياحا و نظر للمنذر فوجده فاتحا عينيه و نظراته يملئها الضعف و الوهن.

- مولاى المنذر.

تقدم زبيد على الزباء فزعا مما رأى، و قام اليفع برفع المنذر على الزباء و قال لزبيد : أنطلق به للكهف.

و ركب اليفع الخطاف و أمسك بلجام النعامة، و مضى وراء زبيد و المنذر عائدين للكهف ليدوا جراح المنذر.

بللت الدموع عينيها و هي تمسح وجه المنذر و فقد مر على حادثة في الغابة أسبوع، قضاها منطرحا على الفراش و الملكة تبكي ابنها و تنظر إلى اليفع نظرات الحقد و الكره.
دخل الملك لغرفة المنذر فرأى الملكة تبكي و الطبيب عنده ينظف الجراح، فقلق و قال : كيف المنذر اليوم ؟
علا بكاء الملكة و أمسكت بيد المنذر، و قالت : لم يفق يا مولاى.
تقطع قلب الملك و اقترب من المنذر جالسا على فراشه، و أخذا يمسح جبينه المتعلق و قال للطبيب : متي ينهض من غيبوبة ؟
فتلبك الطبيب و قال : يجب أن يفيق بعد عدة أيام يا مولاى.
كاد الملك أن يقول شيئا و لكن الملكة قالت : مولاى، لقد فتح عينيه.
جالت عين المنذر في الوجه فوقه و تمتم : مولاى.
تنفس الملك ارتياحا و أمسك بوجه المنذر بين يديه و قبله قائلا : الحمد الله الذي ردك سالما يا بني.
- مولاى، اليفع.
- لا تقم يا منذر اليفع بخير، أيها الطبيب قم بعملك.
ثم قال : أخبر الأميرة أن المنذر قد أصبح بخير.
اقترب الطبيب من المنذر و أخذ يعالج، بينما مسحت الملكة دموعها و زفرت ارتياحا، تنفس الملك بعمق و أعاد النظر إلى المنذر مرة أخرى ثم خرج إلى الديوان ليكمل شئون الدولة، تحفه الجلالة و الهيبة و كأنما ليس المنذر ابن له. نعم كان الملك رغم الهم و الكآبة في قلبه يتابع عمله و ينظر في شئون الناس كاتما الألم في قلبه.
جاء اليفع بعدما سمع عن المنذر راكضاً ليراه، فلما دخل عليه تبسم المنذر فركض إليه اليفع و قال : أخي.
أمسك المنذر بيد أخيه اليفع سعيداً عندما رأى نظرات الخوف في عيني اليفع، و قال : روحي و حياتي فداء لك يا أخي.
- حياتك أغلى و أثمن من أن تهبتا لي، بئساً لي، لا تفعل شيئا كذلك ثانية يا منذر.

و همس له : و إلا ظنت الملكة أني أحاول قتلك.
ضحك المنذر و لكنه كشر ألما، أخذ اليفع يحدثه حتي نام مبتسما و قد أعياه التعب، دخلت الأميرة لترى المنذر و دخلت معها ظبية قد كان الألم مرتسما على جبينهما.
ظلت ظبية واقفة بوهن تنظر إلى حبيبها المريض و الدموع تنزل من عينيها، لكن الأميرة رمت نفسها على المنذر و بللت وجهه بدموعها، فسحبها اليفع بهدوء متمتما : إنه بخير يا مولاتي، لقد غفا منذ لحظات فقط.
هدأت الأميرة و جلست قربه تنظر إليه و تسمح يديه بحنان ثم تنبهت لظبية الواقفة هناك، فمدت يدها لتقترب ففعلت ظبية و كأنما يقودها الجلاد للموت، و لم تقل كلمة غير أن تنفسها المضطرب فضح بكاءها، و ظل الهدوء سيد الموقف في غرفة المنذر»
هذا ما جال في ذاكرة اليفع بينما هو يمشي مع قيس و المنذر إلى بلاط الملك، و قد مر شهر كامل و استعاد المنذر عافيته و انتقل الملك بلاطه إلى بصرى، حيث امتلأت بصرى بوفود الجنود و بدأ جيش الشام يعد عدته للسير إلى سابور، فكنت ترى بصرى تكاد تنفجر من كثرة الجنود و السلاح الذى يملئ الأسواق و المنازل، و الخيل يركبها الفرسان يركضون بها في السهول، و أهالي بصرى يفتحون بيوتهم للجيش القادم إليه من كل حدب و صوب، و كان الناظر إليهم من سماء البصرى يظن أن عددهم يفوق عدد حبات الرمل على شاطئ دجلة و الفرات. و مشى الجيش حتي وصل إلى "عين أباغ" و هو سهل فسيح قرب بني شيبان وهم من قبائل الخاضعة للملك العراقي.
و نصب الملك خيمته و أرسل مالك بن أنبل في فرقة من الجنود لاستطلاع وضع جيش سابور، و مكثا الجيشين بعبدين عن بعضهما لمدة أسبوعين لا يتقدم أحدهما أو يشهر السيف، و كان الملك عرين على رأس الجيش و اليفع و المنذر يطوفان ليل نهار على الجيش و الجنود، لا تغفل لهم عين ينظران في أحوال الجيش، و الويل لمن يراه اليفع و المنذر تاركا سيفه و درعه، فغير مسموح للجنود بالنوم إلا و على أجسادهم الدروع ترقبا لأي هجوم مباغت ليلا، ببمنا ظل قيس من الملك يخططان للحرب. و عروة قائد الفرسان مرتديا لباس القائد نافخا ريشه يمشي على رأس الفرسان، و يحرضهم على سابور في نهار، و يبدل لهم المال و الذهب و يمنيهم بالوعود ليلا إن استجابوا له و

تبعوه عندما تحين لحظة الانقلاب.

و كان ليث لا يغفل عن عروة فيتبعه أينما ذهب و خصوصا في الليل، و يخبر الملك بتحركاته و يعد عليه الأنفاس، و عروة مطمئن البال لمخططه حيث أنه قد اتفق مع سابور أن ينقلب على الملك عندما تدور رحى الحرب، فإن فاز سابور أصبح عروة هو عامله على الشام و الحوران. أما لبيد فكان مع الملك حينا و حينا أخر تراه يلف على الجنود و يقضي حاجاتهم و يمشي مع اليفع يتفقدان العشائر و ينظمان الجنود. و زبيد على رأس الحرس يرافق المنذر في جولاته و يحمس الجنود يخطب فيهم قائلا : الويل لمن تسول له نفسه بالهرب من ساحة الطعان، فالحرس الملكي ورائهم يقتل الفارين فإما الموت بشرف أو الموت على يد جنود زبيد.

و في مؤخرة الجيش خيمة عليها الجنود و الحراس وضعهم زبيد لحراسة الأميرة و أميرات العشائر " ظبية ، سلمي ،فاتنة، صفية " مع الجواري لخدمة الجنود، فكانت الأميرة تشرف على إعداد الطعام للجنود و ترش عليهم الأزاهير، و تفعل مثلها أميرات العشائر و في صدر كل منهم رهبة الحرب و الخوف من القادم و المكتوب على صفحة القدر.

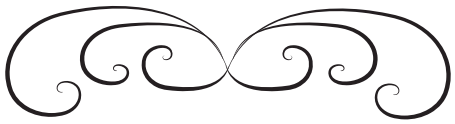

- خذ الرسالة و امضي بها، و لا تنسي ما أوصيناك به.

أمسك الرسول الرسالة و خبئها في جيب ردائه، و قال لسابور في خيمته وسط الجيش العراقي : و أنطلق الأن يا مولاى ؟

- نعم تخرج الأن، و خير لك أن تفعل ما وكلت إليك و إلا فالموت نصيبك.

قبل الرسول الأرض بين يدي سابور قائلا : رسولك سيخرج حاملا وصيتك بين جنبيه.

فأشار سابور عليه ليخرج، و كان الليل بدأ يسدل سدول، فانطلق على فرس يمشي نحو الجيش الضبعي منفذا أمر الملك.

حالما خرج الرسول قال أحد المستشارين لسابور : أيعمد مولاى لإيقاع سيد بنى بارف في إثم الخيانة، و لكن عامل الروم يحبه و قد قربه منه فابنته خطيبة لأميره المنذر؟
فرد سابور : أتخاف أن يكشف عرين عن حقيقة الأمر؟
- نعم يا مولاى.
- إذا فاعلم أننا سنضرب عرين بالسيف بينما تستعر النار الثورة و البلبلة في خيمته، ولن يعلم أنه سفك دما بريئا.
- فمولاى ينتظر من عروة بن جندل إشارة في هذا الليل.
- نعم سنتظرها و نشعل النار في معسكره.
-أرجو يا مولاى ألا تأمنوا له فهو خبيث النفس، كثير المطامع و لا أظنه يصدق في فعله كقوله.
فتدخل ولى العهد قائلا : فإن فعل قطعنا رأسه و لا يغني عنا شيئا.
-أرى يا مولاى أن تخص أحد جنودك ليلحق عروة، فإن فكر في الغدر بنا أو الهرب قتلته فوراً.
فهز سابور رأسه مستحسنا الرأي، و قال : سنفعل، لقد أحسنت الرأي.
ثم أمر أحد الحراس الذين في الخيمة أن يبحث عن عروة و يقلته إن حاول الهرب، و كانت الخطة التي دبرها ولى العهد أن يستعمل الرسالة التي أرسلها لهم عروة بدون توقيع إلى الملك عرين، و قد كتب عليها أحد الندماء الذين يجيدون العربية اسم وائل بن بارف في أسفلها، فلما يراها الملك يستدعي وائل و يتهمه بالخيانة، و عندها يقوم عروة بإرسال سهم مشتعل باللهب إلى معسكر سابور، فيهاجم سابور على غفلة من الملك الضبعي و يخسره الحرب.
و من جهة أخرى كان عروة متجها لخيمة وائل في البداية الليل لينفذ خطة أخرى، و تقتضي أن يكلم وائل و يحرضه على الخيانة و يعده و يمنيه بالمني، فإن رفض يأخذ منه رسالة تحمل رده لسابور و يغير الرسالة بأخرى تثبت أنه يتواصل مع سابور سراً و هكذا يحصل الملك على دليلين على غدر وائل. و في تلك الساعة المضطربة يعطي لسابور الإشارة و يهجم على الملك ليلا و يقتله غدرا و تخفيا.

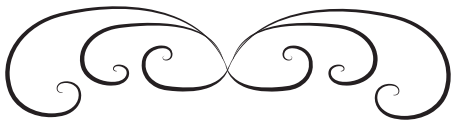

{32}

خرجت ظبية مع صوفي و أمامها حارسان لخيمة والدها وائل الذي جلس معها يحدثها لفترة ثم دخل عليه حارس خيمته يعلن حضور عروة، تعجب وائل من ذلك و لكنه قال لحارس خيمته : أدخله و أنتِ يا ظبية أتبقين أم تردين العودة لخيمتك ؟

قالت ظبية : سأبقي إن سمح لي مولاى.

هز وائل رأسه موقنا أن ظبية تحب أن تسمح حديث السياسة و الحرب، و دخل عروة فسلم و دعاه وائل للجلوس فجلس وظل صامتا، ينظر إلى ظبية نظرات اقشعر لها جسدها لها خوفاً، و لولا الظلام في الخيمة إلا من نور المصباح لرأت ظبية ابتسامة النصر و الحقد الدفين في عيني عروة.

قال وائل : فيما جئتنا في هذا الليل ؟

رد عروة بسرعة : جئت لحديث مهم من مولاى الملك.

أنصتت ظبية باهتمام و قال وائل متنبها : هل أمر مولاى بالتحرك ؟

- لا، و لكن لا يطيب لي الحديث إلا لك وحدك.

فنظر وائل لظبية لتخرج فخرجت و مشت خطوة في الخارج لتنادى صوفي و الحراس لتعود لخيمتها، و لكن أيدى صلبة كالحديد طوقت عنقها فكادت تموت خنقا، و ظلت تحاول التنفس حتي أغمي عليها و سقطت في الظلام فرفعوها إلى هودج، و ساروا بها إلى أبعد مكان من معسكر الملك متجهين إلى معسكر سابور.

مشت صوفي للخيمة تسأل عن ظبية فقال الحارس لقد خرجت في هذا الاتجاه، فمشت و رأت هودجا يسير مسرعا و حوله عدة رجال على الأحصنة فخافت، و قالت

للحارس الذي جاء معها أن يركب ليلحق بذلك الهودج ففعل. و انتابها القلق و سارت إلى الخيمة تريد أن تعلم وائل و لكن حديث عروة لوائل انتهى إلى سمعها فتنبهت حواسها و كتمت أنفاسها تصغى إلى حديثهما و هذا ما سمعته :

قال وائل غاضبا : ليس الغدر من صفات وائل بن بارف، أتراني بعد أن قربني الملك و خطب ابنتي لابنه أطعنه في ظهره لأجل بعض الدراهم، إنك إذا لظلوم غادر.

فقال عروة بهدوء : إن الزمان لا يؤتمن جانبه يا وائل، و إن كنت قد فتحت لك قلبي و صارحتك بأمري فلأني أعلم يقينا أنك رجل صادق في قولك و فعلك، و مولاى سابور يراك تليق به فأسر لي أدعوك لنصرته، و لك أن تحكم حوران تحت قدميك على الانحناء للملك عرين الذي يرى نفسه أرفع من أن يوليك قيادة الجيش.

ثم ابتسم بخبث، فقال وائل و قد هاجت فيه الحمية و أكبر على نفسه أن يخون الملك : و الله يا عروة فإن لم تعد عن قولك هذا فوالله لأُطيرنَّ رأسك الأن، فليكن وائل أقل خاصة الملك مقاماً و منزلاً، و لا يوضع على قبره وسام الخيانة و الغدر.

و أمسك بسيفه و نهض ليضربه و يأخذه للملك و لكن عروة قال بثقة : لا تضرب عنقي، فأكون أنا المظلوم و أنت الغادر المتلون الذي يقتل أبناء عمومة الملك، و يخبئ المال و الذهب من سابور لينقلب و يطعن الملك في ظهره.

فحار وائل في أمره، و قال : و كيف ذلك يا عروة ؟

- لأن مولاى الملك لا يصدق أقوالك بدون دليل ملموس.

فقال وائل غيظا : أ اكون أنا الخائن دون أن أعرف، إنك تهذى و الله يا عروة، أفصح عما تكمن في صدرك قبل أن أضربك الأن و ليفعل الملك بي بعدها ما يشاء، فقل ما شأني بمال سابور و ذهبه ؟

فقال عروة مبتسماً و لمعت عيناه بنور أحمر ناظراً إلى وائل الذي مازال واقفا و بيده السيف : أما المال فهو في قصرك الأن و لا شك، وأما الذهب فأنت قد أعطينه لجنودي الفرسان تحرضهم على معاونتك ساعة الانقلاب، فسأل الفرسان بل أحضرهم أمام الملك ليشهدوا أنك من تعطيهم الذهب.

فبهت وائل و اهتز السيف في يده و قال : و بعد ذلك ؟

حك عروة رأسه بحيرة قائلا : بعدها يا وائل يأتي عروة قائد الفرسان ليشكوا للملك، أن وائل يغرق جنوده بالذهب و يوسوس لهم في الليل ليقتل الملك، فيقتل وائل و تفجع بنى بارف في سيدها و يصبح عروة أقرب لمولاى الملك و يزداد ثقة بي، و أما ظبية فتحمل العار الذي لحقها من والدها.

ارتجفت شفتا وائل و قال مهزوزاً : و ما شأن ظبية يا عروة ؟

اتسعت عينا عروة و قال : كيف ما شأنها ؟ إن هروبها في الليل لدليل أن وائل خائن، و قد خاف على ابنته فأرسلها لسيده ملك العراق سابور.

فقال وائل هازئاً : إن الخرف قد زارك سريعاً يا عروة، فـظبية منذ ساعة كانت تجلس معي و قد رأيتها بعينيك يا لعين.

فقال عروة : أدعوها إذا، أهي في خيمة الأميرة ؟

خفق قلب وائل خوفا و قال صارخا : يا حارس أدعوا ظبية.

فلم يكد الحارس يخطو خطوة حتي دخلت صوفي و على وجهها إمارات الخوف و الجزع، فرأها وائل و أحس بالشر فقال : أين ظبية ؟ و لما دخلت و لم ترافقيها ؟

ركعت صوفي و حكت لوائل عما رأت فجلس وائل مهموما خائفا على مصير ابنته و عشيرته و حمل رأسه بين يديه، فسكت عروة و قال : ليس من سبيل إلا عمل ما أشير عليك به، فخذ النصح مني.

فقال وائل : أخرجي يا صوفي، أخرجي فقد ماتت ظبية و لا سبيل إليها بعد الأن.

فخرجت و أنزوت ثانية لتسمع باقي الحديث و لم تكد تسمع شيئا لأن يدا باردة قبطت عليها فتفتت في الظلام لا تدرى ما تفعل.

- سأخذ منك روحك يا ابن أسود.

رفع السيف في وجهه فتصدى له عروة بيده و قال : تأخذ روحي يا وائل و تترك الملك بلا قائد لفرسانه ؟

صرخ وائل : بل أخذها بعد أن يعلم الملك بما تخطك له يا عروة، أتخطف ابنتي و تريدني أن أسمع لك ؟

- أنا أضمن أن تعود تحت جناحك سالمة.

- لا أصدق أحدا يطعن سيده و ولى نعمته، إنك بلا كلمة تأخذ منك يا أتعس البشر، قل أين ظبية ؟

- إنك إن قتلتني الأن لن تهتدى إلى ظبية أبداً.

فقبض وائل عنقه خانقا إيه، و زمجر : إن مسستها بسوء يا عروة لأسلَخَنَّ جلدك و، ليقتلني الملك بعدها فلا أبالى.

فقال عروة و قد تجمعت الدموع في عينيه الخائفتين : دع عنقي يا وائل، فإن لم أرسل لسابور رسالة منك فإنه يقتلها، و لا يرف له رمش و لو علم أنها ابنة الملك عرين.

تركه وائل ليلتقط أنفاسه و قال : فلتمت ظبية و لكن وائل لا يُراسل سابور أبدا.

فيأس منه عروة و نهض واقفا و مشي إلى أخر الخيمة، و كان يسمع اهتزاز السيف في يد وائل فقال : سلام على ظبية فهي ضحية الوفاء، الوفاء الذي يأخذ بوائل ليرمي ابنته الوحيدة في أحضان الموت.

فقال وائل : عد يا عروة، إنها ساعة نحس ألتي دخلت فيها إلى خيمتي.

فأمسك عروة ابتسامة ظفرت منه و إلف عائدا و جلس، فظل وائل صامتا فقال عروة قاطعا صمته الرهيب : أكتب رسالة يا وائل، قبل أن ينقضي الليل بطوله.

- و ماذا يريد سابور أن يسمع منا.

- لا يريد منك إلا الحياد ببني بارف.

- أما أنا فنعم، و لكن قومي في ساحة الوغي لا يرون إلا العدو أمامهم و لن يطيعوني.

فضحك عروة و قال : أتراني غافلا يا وائل، و الله إن أمرتهم أن يدخلوا على خيمة الملك

لفعلوا دون أن يشاوِرك في أمرك .
فزم وائل شفتيه و قال : لقد أضحى وائل و ابنته لعبة في يد الأغرار، و الله إن الصعاليك من العرب لا يفعلون ما تفعله أنت.
فأسرها عروة و لم يرد أن يغضبه خوفا على نفسه، فلولا خطفه لظبية لأطار وائل رأسه فوراً، و كتب وائل رسالة من يطر واحد يضمن فيها حياده عن القتال ليحفظ له سابور حياة ظبية، فأخذها عروة و خرج مبتسما و توجه إلى خيمته.
و لم يكد وائل يفكر حتي دخل عليه ليث مستأذنا و رأى حالة وائل، فقال له همسا: لقد سمعت و عرفت كل شيء يا سيدى، فلا تجزع و لا تخف و أطلعني على الأمر،
فاهتز وائل و قال : أسمعت حديثي مع عروة يا ابن عمر ؟
فقال ليث : نعم و أنا أضمن لك براءتك أمام الملك.
فقال وائل : و تصدقني إن قلت لك أني كتبت رسالة لسابور و لكني لن أفي بها ؟
فبهت ليث و قال : ماذا، أتضحي بابنتك يا مولاى ؟
فهز وائل رأسه حزينا : خير لها أن تموت في سبيل الشرف من أن تحمل هذا العار، نعم سأفعل و قلبي يقطر دما و لن يراني الملك إلا مخلصا له.
فتبسم ليث و قال : إن الوفاء متأصل فيك، فوالله لا أتركك حتي يعلم الملك صدقك هذا، و لكن علينا أن نقرر ما نفعل مع عروة.
فقال وائل : أشر علي يا ليث.
- نخرج الأن و نقوده للملك فيعترف بكل شيء، و نفضح خطته مع سابور.
فقال وائل :و من يشهد على ذلك يا ليث ؟
- أنا أشهد، و خادمة مولاتي ظبية تشهد أيضا.
فقال وائل : من تقصد يا ليث، صوفي وحدها كانت مع ظبية.
فقال ليث : هي بنفسها و قد حدثتني بكل شيء، فقد وجدها تستمع لحديثكما و سمعت أنا باقي الحديث، فقم معي الأن و لا تضع الوقت.
فقام معه وائل و أخذا صوفي إلى خيمة الملك، و قد لاح لوائل بعض الأمل في أن ينفذ ظبية من الأسر.

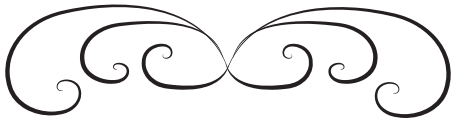

{33}

اهتزت يد المنذر و هو يقرأ الرسالة، أما الملك انتفخ وجهه و أخذ يضرب بيده على الكرسي الذي بجلس عليه غيظا و قال صارخا : يا عاصم أدعوا وائل ليحضر بسرعة، و أنت يا عمر خذ الرسالة و إقرائها بصوت عال ليسمعها كل من في الخيمة.

و كان في الخيمة الأمراء الثلاثة و رؤساء العشائر و القادة و الندماء، فأخذ عمر قائد الرماة الرسالة و فتحها و قرأ ما كتب فيها، و وجهه المنذر يتغير حتي اسود تماما، و هذا مضمون الرسالة : { إلى سابور الملك العظيم ملك العراق و رافع لواء الفرس، هذا الكتاب بعث إليك لتستوثق إخلاصنا و رغبتنا في مساندتك في حربك مع عامل الروم، فإني وجدت فيها ما يفيدك فنحن معك على أن تولينا إمارة الشام و الحوران بعد الظفر، و إلا فالحرب بيننا فأنظر في أمرك، وائل بن بارف سيد عشيرة بنى بارف }

فنظر اليفع و قيس إلى المنذر الذي قال حانقا : كيف وجدتم هذه الرسالة ؟

فقال لبيد : وجدتها عند أحد الجنود كان يتسلل بين جنودنا، فلما رانا نقترب منه حاول الهرب و لكني ضربته بسهمي فسقط عن فرسه، و وجدت هذه الرسالة في جيب في داخل ردائه يا مولاى.

فقال الملك : أحي الجاسوس؟

فقال لبيد : لقد مات يا مولاى.

- ماذا ترى في هذه الرسالة يا عمر ؟

قال عمر بهدوء : لا أصدق أن وائل قد يخون مولاى الملك، و لكن ربما في أمر شيئا نجهله يا مولاى.

- وائل يراسل سابور دون علمنا، فماذا يكون في الأمر غير الخيانة ؟

فقال اليفع : أشعر أن الأمر التباس يا مولاى، فهل هذا خط وائل في الرسالة ؟
فقال الملك : إذا ندعوا ظبية لتتعرف على خط والدها.
فخفق قلب المنذر و قال : وما شأن ظبية يا مولاى ؟
فلم ينظر إليه الملك بل قال : شأنها أن والدها يخون الملك، فليس لها مكان عندنا، و لكن سنسألها إن ترد أن تلحق بوالدها للموت أو تريد الخدمة في قصرنا ؟
فقال قيس مستجدنا : مولاى أرسل ليث ليحقق في الأمر.
فقال الملك بحزم : يا عمر أدعوا ليث.
فخرج عمر ليدعوا ابنه و لكنه عاد و قال : مولاى وائل و ليث جاءا ليستأذنا في المثول أمامك.
فتبسم الملك و قال : لقد جاء وائل ليعترف بالجرم، فأدخله و ليدخل ليث، و عاصم أين هو؟
- لقد جاء معهما يا مولاى.
- أدخله أيضا و أرسل في طلب ظبية.
فدخل وائل و رأيا الكآبة في وجه القوم فاهتز الملك لما رأه و رغب في قتله، و لكنه تمالك نفسه. و قال وائل : إن ظبية ليست في المعسكر و لا في الخيمة الأميرة يا مولاى، بل هي أسيرة في يد سابور.
فقال الملك متعجبا من هدوء وائل : سنرى الأن ظبية.
فقال ليث : مولاى، إن وائل محق فيما يقول لأن ظبية الأن في معسكر سابور و ليس في سبيل للوصول أليها.
فنظر الملك بتمعن إلى ليث و قال : أتقول أن سابور يخطف ظبية و هي في معسكرنا يا ليث، إنك قد جنَّت حتما.
- لا يا مولاى، و لكن عندما يرسلها أحد قوادك بنفسه إلى سابور فهذا ليس جنونا.
سكت الملك و رأى الجد في عيني ليث، و قال له : لقد بعثنا وراء وائل في أمر فعرض لنا أخر، فقل يا ليث ما تعرف.
فقال ليث : أقول يا مولاى، و لكني أطلب أن تدعوا عروة ليحضر.

فلمعن عينا اليفع خوفا و قال : مولاى أدعوا عروة للحضور.
فقال الملك : و ما شأن عروة في حديثنا ؟
فقال ليث : له كل الشأن يا مولاى.
فأرسل الملك في طلبه و دخل في ذات الوقت زبيد و مالك، فأذن لهما الملك و قال زبيد : مولاى أحمل رسالة من مولاتي الأميرة.
فقال الملك : قل ماهي ؟
- تقول يا مولاى، أن ظبية بنت وائل قد خرجت من خيمة عند الغروب و لم تعد يا مولاى، و قد أرسلت مالك للبحث عنها فلم يجد لها أثر.
فنظر الملك إلى مالك و قال : أبحثت عنها و لم تجدها يا مالك ؟
فرد مالك : نعم يا مولاى، و مازال الجنود يبحثون عنها.
فاحتقن وجه المنذر و اهتزت يده، و قال الملك : قل ما تعرفه يا ليث بينما يحضر عروة.
فسرد ليث على الملك كل ما حدث و لم ينسي شيئا، بينما ظل وائل صامتا ينظر إلى وجه الملك، فرأه يتحول من الغضب إلى الهدوء و قال الملك لما سمع حديثه : أتشهد على براءة وائل يا ليث ؟
فقال ليث : أشهد و أضمنه يا مولاى.
فقال الملك : أدعوا صوفي لنسمع قولها يا زبيد.
فدخلت صوفي شاحبة الوجه فسألها فقالت مثلما قال ليث، فأخرجها الملك و لم يبدوا عليه أنه صدق حديث صوفي و ليث، فظهر العجز في عيني المنذر و كسا وجهه الشحوب، فالمصائب لا تبرح تسقط على أكتافه فتدمي قلبه و نجرح روحه الطماحة، فربت قيس على يد المنذر مطمئنا إياه.
قال الملك محدثا ليث : سنعرف قصة هذه الرسالة عندما يأتي عروة، و لكن كيف تثبت صدق وائل على رسالة أخرى حصلنا عليها من جاسوسه يبعثها لسابور؟
توتر الجو داخل الخيمة و سرت في جسد وائل قشعريرة الموت و قال ليث : أي رسالة يا مولاى ؟

فأعطاه الملك الرسالة فقرأها و قال : لا أعرف عنها شيئا يا مولاى، فسأل وائل ؟
فقال وائل فوراً : إن شك مولاى الملك في وفائي و صدقي فهذا ليسقط علي أقسي من سوط و الرماح على الجسد الغض، إني يا مولاى ألجأ إليك في مصابي و لكني أرى ألا مكان لي في خيمتك الواسعة هذه ، فاقض ما أنت قاض.
فقال الملك : أتقول أنك خنتنا يا وائل و أرسلت ظبية إلى سابور خوفا عليها من الأسر عندنا.
فلم يكد وائل يقول شيئا حتي قال عمر : كفى،. و الله يا مولاى إني لأشهد على صدق وائل من نظرة واحدة إلى هذه الرسالة تكفي يا مولاى.
نظر الملك إليه هائجا : كيف تقول ذلك يا عمر؟ و إن كان صادقا فمن أرسل هذه الرسالة غيره.
فتلبك ليث و نزل العرق من جبينه فلم يبالى الملك بذلك، و نظر إلى عمر الذى قال خافضا عينيه : مولاى، هذا خط عروة و إني أعرفه فأنا من علمه الكتابة، و لا تسألني عن الرسالة فلا أعرف لما كتبها يا مولاى ؟
تمتم الملك : عروة، عروة، غريب، عجيب.
ثم خيل لوائل أن الملك ابتسم بمكر ، فقال الملك : أين عروة ؟
دخل الحارس ليقول أن لبيد خرج ليدعوه و قد وصل معه، فحبس القوم أنفاسهم و تنبه اليفع و المنذر ليسمعا الحديث و في صدر كل منهما لوعة، فاليفع حزين على عروة الذي كان لا يفارقه ليله و نهاره، و المنذر يكاد ينقض عليه ليخرج روحه منه. و دخل لبيد الذي جر عروة جرا إلى الملك و ركع أمامه، و رأى عروة الشر يطل من عيني الملك، فلما رأى وائل قال : مولاى، وائل، وائل لخونك يا مولاى.
فقال الملك رافعة حاجبيه و مبتسما : عرفنا ذلك يا عروة و قد جئنا بك لتدلى بشهادتك، قل يا عروة ما دليلك على خيانة وائل ؟
فابتسم عروة المسكين الذي لم يكن يعلم أن سابور قد أرسل رسالته القديمة إلى الملك و قال : هي في ردائي يا مولاى، فأشار على موضعها في صدره و أخرجها بيد مرتجفة فأخذها منه لبيد و قدمها للملك، و رأها وائل فقال : نعم لقد كتبتها يا مولاى.

فقال الملك و مازلت تلك الابتسامة الساخرة على شفتيه : و المال و الذهب يا وائل أين هو؟

فرفرف قلب عروة فرحا و قال : إن المال يا مولاى.

قاطعه الملك بإشارة من يده فسكت عروة، و قد سرت في جسده شعلة نارية أرسلتها له عينا الملك ، فقال وائل بهدوء : أما المال فهو في قصري، و الذهب وزعته على فرسان في المعسكر.

فقال الملك : أحضر بعض الفرسان ليدلوا بالشهادة ..يا..

ثم جال بنظراته و قال : يا زبيد.

فخرج زبيد و أحضر عدة فرسان كان بينهم رزاح و بلال من بنى ثعلبة، انضما للفرسان ليقاتلا في مقدمة الجيش، فهمس لهم زبيد قبل أن يدخلوا قائلا : قولوا الصدق، فعروة فُضح أمام الملك.

فاهتز بعض الفرسان و تهامسوا فقال رزاح : ما جئت إلا لأقول الصدق.

فقال بلال : نعم يا سيدى، و لو كان في ذلك انفصال رؤوسنا.

و دخل زبيد و استئذان لهم فدخلوا للخيمة ، فقال الملك : سمعنا أن فرسننا ينقصهم المال فتصدق عليهم وائل بالذهب.

فقال رزاح بلا خوف : و الله ما أنقص مولانا الملك بشيء، و لكن مالى وائل في الأمر؟ فإن قائد الفرسان هو الذي وزع علينا الذهب، فقد طالت مدة مكوثنا في هذا السهل و لم يشهر مولاى الملك السيف.

و قال مثله باقي الفرسان، فسمع الملك صوت ركبتي عروة تتخبطان و بكي عروة ناظراً إلى الأرض، فاكتست نظرة الملك شكلا جديدا و قال : هذا مالم نحسب له حسابا، فعروة متفق مع وائل للانقلاب علينا، قل يا عروة متي كنت سترينا رسالة وائل.

فقال عروة : اليوم يا مولاى.

و ارتجفت شفتاه.

- و متي تشهر السيف في وجهنا ؟

فسكت عروة و لم يحر جوبا، فقال الملك : قل متي سيهاجمنا سابور.

و ضرب بيده على الكرسي، فقال عروة : بعد يومين ليلا.
فقال الملك : يا زبيد خذ كل فرسان الذين أخذوا الذهب و أجلدهم ثلاثين جلدة أمام باقي الفرسان.
فخرج زبيد فوراً مع الفرسان و قال الملك : أما وائل و عروة نقطع رأسيهما بتهمة الخيانة.
فقال الأمراء و عمر و ليث و عاصم : مولاى ، أعفوا عنه.
فقال عروة خائفا : مولاى، لقد أردت أن أكشف وائل ففعلت ما فعلت رغبة مني في حفظ حياتكم و الوفاء لكم.
فهز الملك رأسه إيجابا و قال : نعم، و لدينا الدليل على ذلك.
فتقدم عاصم و أعطاله الرسالة ألتي أرسلها سابور فلما رأها عروة اختاج صوته وهنت قواه، و أخذ ينظر إلى اليفع مستعطفا فأشاح اليفع عنه وجهه متألما و قال : إذ حكم علي بالموت يا مولاى.
فقال الملك : نعم لقد حكمنا، فقل أين ظبية يا عروة ؟
فقال عروة : لي كلمة أقولها لمولاى الملك قبل أن أموت.
فقال الملك : أخرجوا.
فخرجوا جميعا إلا الأمراء و عروة و لبيد وقف عند الباب حاجبا.
فقال الملك ببرود : قل كلمتك.
فسكت عروة، فقال المنذر : قل أين ظبية يا عروة ؟
فقال عروة : ظبية في معسكر سابور و لا سبيل إليها إلا بالسيف و كلمتي التي أريد قولها هي.
عاد للسكون و قد فكر أن يفضح كل ما يعرفه، فإن كان الموت نصيبه فليكن الموت نصيب الجميع و قال : أيعلم مولاى الملك كيف ماتت مولاتي شهرزاد ؟
اهتزع الملك و قيس و قال المنذر : ويلك و ما لمولاتي شهرزاد في ذلك.
فضحك عروة ضحك الرجل الميت و قال : لها كل الشأن، لأن الملكة هي من قامت بتدبير كل شيء مع خادمتها ماريا الرومية، و هي تعرف أكثر من الجميع كيف ماتت

كوكب بنت حمزة.
فأشاح الملك بوجهه عن عروة و قال : أوصي يا عروة.
فبلع عروة لعابه و قال : ليس لي وصية سوى أن أدفن بعيدا عن الحوران.
ثم خرج الملك و قال لعمر : يا قائد الرماة لقد ربيت عروة منذ صغره و لكن قلبه قد تأكله الحسد و البغض، و روحه قد تعفت فلا تلم نفسك.
فنزلت دمعة من عين عمر مسحها فورا و قال : مولاى، أعفو عنه، أنفه عن البلاد.
فأخذ صدر الملك يعلوا و يهبط و قال : علي بالجلاد.
فحضر و في لحظة فقط مات عروة و سحبه الجلاد بعيدا، و لم يستطع اليفع النظر إليه و أما المنذر و قيس فقد شغل فكرهما بكلمات عروة الأخيرة.
ثم قال الملك لوائل و ليث : اقتربا فقد عرفنا مقدار وفائكما.
فركع وائل و قال باكيا : الأن يا مولاى أستطيع أن أقاتل في صفوف جيشك و أطلب ظبية من أيدى سابور.
فتبسم الملك و قال : نعم، و تستعد فاليوم لا ينام أحد.
ثم قال لـليث : كن قائد الفرسان يا ليث.
فمشي ليث لينظم الفرسان و قد علا وجهه لون أصفر شاحب، و كان ذلك الليل صافي السماء و على الأرض تصاعد الغبار، فالملك ارتدى الدرع و جلس في خيمته ينظر في الحرب، و القادة قائمون على الجنود و قد اصطفت الجيش و امتلئ السهل بصفوف الجند، و قد أنقضي الثلث الثاني من الليل فخرج الملك و ركب فرسه نظرا إلى الجهة الأخرى و رفع سيفه و صرخ : إلى سابور.
و مشى الملك متقدما الجيش و معه اليفع عن يمينه و قيس عن يساره مع المنذر، و ليث يقود الفرسان خلف عمر قائد الرماة و وائل يقود المشاة في الخلف و لبيد مع قيس و مالك مع ثلاثمئة فارس، ليحمي الأميرة و يأخذ الجرحى و زبيد في نهاية مهمته أن يقتل كل من يحاول الهرب.
أما حمزة فكان مع الملكة في بصري يدير المملكة في غياب الملك، و كان عاصم على الطليعة و مضت عدة ساعات فرأى الملك خيام سابور منتشرة على كل السهل، فلما

وصل الخبر لسابور احتقن وجهه و عرف أن خطته فشلت، فنهض يرتب الجنود مع ولى العهده حانقا فوصله رسول من الملك يقول له : عرفنا أن أميرة لنا تدعى ظبية عندك فإما أن تطلقها و إما جئتك بجند لا قبل لك بهم.

فقال له سابور : دوننا الحرب و فليخرج أحد أولادك ليبارز أحد أولادنا فإن فاز أبننا فالأميرة لا تعود و إلا أعدتها.

فعاد الرسول و أخبر الملك فرضى بذلك و تقدم المنذر وخرج أحد أولاد سابور فتقاتلا قتالا شديدا فمات ابن سابور، فهاج سابور و أخذ رمحا من أحد الجنود و أطلقه على أحد الفيلة، فهاجت تقدمت تركض بغير هدى فأخذ المنذر يطعنها بالسيف حتي انكسر سيفه فخاف الملك و أخذ اليفع رمحا و تقدم على فرسه ليهجم على الفيل، و أخذ الملك بالسيف و صرخ : اليوم يومكم يا أبطال البلقاء.

و التحم الجيشان و كثر القتل و تطايرت الرؤوس و أخذ المنذر يشق الصفوف حتى رأى خيمة عليها حراسة فعرف أن فيها ظبية فصرخ في الفرسان : أحملوا معي و احضروا أميرة بني بارف.

فتقدم معه الفرسان و المنذر يضرب يمينا و يقطع يسارا حتى مضى اليوم و انتصف النهار و تراجع جيش العراق، و كان زبيد مع بعض الفرسان قد هجموا على الفيلة فمات معظمهم تحت أرجل الفيلة الضخمة، التى كانت تدوس على الرجال كما تدوس على النمل، فلا تفرق بين شامي و لا عراقي، فصاح الملك : أطيحوا بأصحاب الأعلام.

فأخذ الرجال يتقاتلون حتي تخدرت الأيدي و صبغت ظهور الأحصنة بالدماء و تجمد الدم على الأجساد، و كانت الأفراس تركض على الجثث كما تركض على العشب فتدوس و تمزق. و كان المنذر يبحث عن ظبية فلم يجدها في الخيمة فثار الدم في عروقه، و رأى قرب سابور فارسا يركض ورائه بعض الفرسان العراقيين فتعجب في الأمر و تقدم إلى سابور، فتنبه له سابور مع ولى عهده و أخذ يقاتلهما معا لا يبالى بمن يكونان، فبينما هو في ذلك سمع صوتا يصرخ : لقد قُتل الأمير، قُتل اليفع.

فقال الملك : لا أخذ باليفع إلا سابور.

فصرخ الرجال و تقدموا، فزعق المنذر و ضرب سابور فقتله و أخذ برأسه يرفعه أمام

الجنود، فعلت الحميه فيهم و قتلوا من بقى من الجنود سابور، و كان لبيد قد أسر ولى عهد سابور لما رأه يحاول الهرب بعد موت والده.

و انتصر الملك على سابور، و لكنه لم يتقدم إلى الحيرة بل ذهب إلى حيث الجرحى فرأى الأميرة و سلمى تنوحان على اليفع فتجلجل صوت الملك و قال : كيف مات ؟

فقال وائل : رأيته يصارع الفيل يا مولاى، فلما انكسر الرمح في يده دعس عليه الفيل عدة مرات فلما ركضت إليه كان قد سلم الروح.

فنزل الملك و قيس و المنذر عند اليفع و بكوا هذا البطل، ثم أمر الملك بدفنه و دفن كل الموتي الأبطال من جيشه. أما سلمى المسكينة فأخذا تبكي و سقطت لا تدري من الدنيا نهار و لا ليل، و الأميرة عندها تمسح وجهها و تبكي على اليفع، و هدأت الأصوات و نزل على القلوب الحزن على ولى العهد الميت، فبكى الفرسان كما بكي الملك حتي دفن اليفع فعاد الملك يمشي بين الجنود و الدموع في عينيه يخفيها بيديه، و هو يرى اليفع بين يديه رضيعا كما أمسكه يوم مولده. و ظل الجيش ثلاثة أيام ليرتاح و يلملم جراحه، و في اليوم الرابع دخل وائل على الملك و قد جفت دموعه و ملئ جسده بالجروح فسلم و جلس فسأله الملك عن أمره فقال : و الله يا مولاى، بحثت في كل السهل و سألت في كل مكان و لكن ظبية قد بلعتها أرض العراق.

فقال الملك : سنتقدم إلى الحيرة و هناك نسأل عنها، فلا تجزع فلم يرها أحد فلا بد إنها قد هربت من جيش في لجة الحرب.

و كان المنذر على فرسه النعامة ينظر إلى السهل أمامه و ينادى ظبية لعلها تجيب، و لكن صوت الريح أجابه فعاد إلى شئون الجيش و قد عول أن يبحث عنها و لو كانت في أخر الأرض، و قد أنساه حزنه على أخيه اليفع في ذلك الوقت البحث عن ظبية فلما دفن اليفع جال بذاكرته، فلم يذكر أنه رأها فحار في أمره، أتكون ميته بين الجثث أم أنها هربت من الحرب و لكن ظبية تقاتل كعشرة فرسان، فأين هي و أي أرض طوت عطرها بين ضلوعها ؟

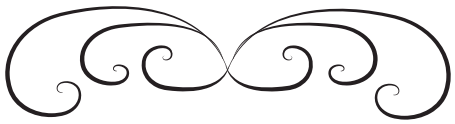

{34}

تفرست العيون في ذلك الجمال الساحر الذي أنار خيمة سابور، و سكتت الأفواه، و ظهرت على شفتي سابور ابتسامة غصبها قائلا :

نراك من الحسن بجانب كبير، و لكن هذا اللسان العربي لهو أعجب ما رأيت يا أميرة الحوران، فقولي أين تريدين أن تجلسي؟ فنحن نحترم الجمال كما نبجل اللسان الفصيح الذى ينطق بالسحر و الهيبة.

فقالت ظبية بشجاعة مرغمة نفسها على عدم إظهار خوفها و ارتجاف قلبها : ليس لي رأى في الجمال فقد خلقت منه بقليل يا سيد العراق، و لكن اللسان هو سلاحي في هذا الموضع فأحكم علي بالموت، فابنة وائل لا تطيق الأسر و تكره أن تطوقها عيون القوم، و كأنما أضحت قطعة من تاجك يسيل لأجلها لعاب الذئاب و الكلاب.

فاهتز مجلس سابور من جرأت الفتاة و ارتسمت على شفتي سابور ابتسامة باهتة، و استلذ حديثها و رأى في عينيها التصميم و في وقفتها ثبات الأسود، بل إنه أحس بالنار في عينيها تكاد تحرق عيناه بحرارتها، فتمتم مرددا كلماتها بمتعة :

سيد العراق، سيد العراق.

ثم نظر إليها و أراد أن يتلاعب بها فقال :

نعم نحن سادة العراق و بعد ليلتين سنمسي سادة الشام و الحوران، و نجعلك تسقيننا الخمر و ملكك مقيد أمام نظرك فلا تستطيع له عونا، و ماذا تستطيع أميرة أن تفعل في معسكر سابور غير أن تطلب منا الرحمة ؟

فردت بصوت مختلج : بل تستطيع أن تغرس خنجرا في قلبك و أن تسمم طعامك، بل أستطيع أبتسم لك و في قلبي نار لا تنطفئ حتى ألمس برودة جسدك بعد أن يسيل دمك على هذا البساط.

فضحك سابور و قال : و الله إن فعلتي ذلك لوهبتك هذا البساط الذي تقفين عليه، و هو هدية من كسرى الفرس، على أن تصدقيني القول فيما أسألك إياه الأن، و إلا

فالويل لك من سيفي الحامي.
فردت بهدوء : لا سبيل لرد القضاء، فسئل ما شئت.
فأحس ولى العهد أن الملك جاد في أمره و خاف عاقبة ذلك فقال : دعها يا مولاى، فنحن لا نريد أن نظهر ضعفنا و نسألها شيئا، بل أسئلك يا مولاى أن تحفظ بحياتها، فربما لنا فيها جزاء.
فنظر سابور إلى ابنه قائلا : نعم نفعل، و نغمرها بإحساننا لتعود لحمى أبيها فتذكر ما رأت و سمعت.
ثم وجه نظره إليها قائلا بحزم : فقولي يا أميرة، ألكى أن نعيد حياتك على ألا تحاولي الهرب منا، و لا تغادري الخيمة إلا إذا جالت الخيل و التحم الجيشان. فإن وفيتي بهذا العهد فإنك عندها تحملين احترامنا، و سوف نضعك في خيمة قرب خيمتنا و نرعى مجلسك طعامك فماذا تقولين. فظهرت على وجهها ابتسامة الأمل الملفوفة بالشقاء و قالت : إن جعلتني في خيمة و حفظت حياتي فإني لا أعض اليد المحسنة إلى، و لسوف أذكر كرمك هذا، فلست أخشى أن أذكر المحسن إلي و لو كان جلادي.
فقال منهياً الجدال و قد أعجب بثباتها و عاطفتها النقية : إذا لتنزل أسريتنا ضيفة في معسكرنا أمنة من سيفنا إن وفت بالعهد، و الويل لمن يتعرض لها بسوء فيلقي منا العقاب.
ثم أشار على الحراس ليأخذوها فقالت : أعرف طريقي يا سيدى، و سوف أسيره إلى شقائي مبتسمة و أحفظ عهدك في صدري.
و مشت وراء الحراس فأدخلوها خيمة قرب خيمة سابور، فيها نطع جلست عليه و معها قربة ماء و على الخيمة أربعة حراس مسيفون، فلما استوى الحراس في أماكنهم سمعوا بكاءها المر، فلم تستطع لكتمه طاقة و لا صبراً، فبكت حتي دب النعاس في عينيها، و هي تمني نفسها بالفرار عندما تتلاحم الجيوش و تختلط الدماء، فتعود لأحضان والدها المحب و ترى وجه المنذر.
فلما نامت جاء أحد الحراس و دخل خيمة سابور فقال له سابور : أما و قد رأينا أميرة المنذر فحدثنا لما جرى معكم منذ أن خرجتم بها من معسكر عرين، بل حدثنا بكل ما

رأيت عن عرين و أمرائه و جنده و احذر أن تغفل شيئا ..
فقال الحراس و هو من حراس الذين خطفوا ظبية : و أنا آمن يا مولاى.
فتبسم الملك مكرا و قال : أعطيتك الأمان على نفسك و دمك.
فزفر الحارس ارتياحا و قال سابور : أبدأ أولا بعامل الروم فكيف رأيته ؟
فقال الحارس : رأيته يا مولاى، رجل حرب و دهاء يجلس للقواد يخطط و يدبر ليله و نهاره، و يستشير حتي أصغر الجنود عن الحرب و يأخذ بالرأي فيقلبه حينا ثم يطرحه لقواده فيرون رأيهم فيه، و جنده يا مولاى مقسمون على الجيش فكل عشيرة تتبع سيدها، و كل أمير على العشائر يتبع القواد، و القواد لا يخطون خطوة ألا بأمر ملكهم أو تحت نظر أمراءه.
فلمعت عينا سابور إعجاباً بعدوه، و قال متلهفا لسامع المزيد : و كيف أنجاله و نساءه و حدثني عن المنذر خاصة، و لا تنسي عنه شيئا.
فقرأ القوم في لهجة سابور الجد فرفعوا أعناقهم ليسمعوا الحديث و يحفظوه، فكان الحارس يقول : أنجاله يا مولاى لا يكنون ولا تكاد تراهم في أول المعسكر حتي تلمح ظلهم في أخره، ينظرون في أمور الجنود و يحدثونهم و يجلسون معهم، بل و يأكلون مع الجنود من صحن واحد فيناقشونهم في أمور الحرب لا يبالون بمقامهم، فترى أعين الجند تلمع احتراما و صدورهم تعلوا و تهبك ممتلئة بالرغبة في بذل أرواحهم لهم، و القواد أنفسهم يحنون لهم الرؤوس و يرافقونهم في طوافهم حول الفرسان، و يلتفون حولهم يسمعون لهم و لا يردنهم في أمر يخرج من شفاه الأمراء.
فأعجب ولى العهد بحديث الحارس و قال : و المنذر كيف رأيته ؟
فنظر الحارس مبتسما للجالس قرب سابور و قال : و الله ما رأيت أعز منه مقاما ولا أكثر تواضعا، رأيته و لمست بيدي جمال خلقه و ثبات سيفه، فصفحة جبينه تنطق بما يختلج به قلبه و عيناه ترسلان نورا ساطعا لكل من يكلمه، فهو ينظر في أمور الجنود و يخطب فيهم صباحا و مساء، فيلهب الصدور و يرفع الهمم و يتفقد السلاح و الدروع، و الويل لمن تقع عين المنذر عليه بلا درع على صدره، حتي في نومهم تراهم مقلدون السيوف، و السلاح عند الرؤوس متأهبون للطعان عند أول كلمة تخرج من

شفتاه. و أما في مجلس الملك فهو الابن البار الوفي الصادق في إخلاصه، يسمع للملك و يناقشه في أموره ليس عصيانا بل رغبة في العلو بوالده و نيل رضاه.
و أحس الحارس أن الخيمة يشملها الهدوء و الصمت فأخذ نفسا و تابع سرده للحديث : أما نساءه و أميراته تراهن يشرفن على الطعام و الشراب، و يغسلن ثياب و ملابس الجنود و يلمعن لهم السيوف و الدروع، و يقمن بتجهيز الواء لاستقبال الجرحى و المرضي، بل إني لدهشت لما رأيت أميرة الحوران أخت الملك تربط نطاقا على خصرها فتروح و تجئ على الجنود حولها حارسان يسمعان لها و ينفذان أوامرها بلا نقاش، و أميرات العشائر و نساء القواد يفعلن مثلها و يتبعن خطاها، بل لولا الحارسان ورائها يا مولاى لظننتها إحدى الجواري تخدم الجنود و تفر لرغباتهم ، و ترش عليهم الأزاهير و المسك، وعندما يحب الليل تلبس لباس الفرسان، فإن دارت رحى الحرب، كانت على استعداد لرفع السيف.
فبُهت سابور و قال : و الله ما كنت لأجعل نسائي يفعلن مثل ذلك، و لكن خصمنا يظهر لنا قوته و عزمه و إنا فاعلون مثله، فحدثنا عن ظبية أميرة المنذر الأن.
فقال الحارس مبتسما : أما ظبية أميرة المنذر فتلبس لباس الفرسان لا تتركه أبدا، و تسمع للأميرة زبيبة و تطيعها بل أنها في كل ليلة تزور والدها وائل سيد بنى بارف، فتستعلم عن الحرب و شئون الرجال و تعطي رأيها، و والدها لا يخفي عنها شيئا فيحدثها بما يعلم، كأنما كانت في خيمة الملك و بين القواد.
فهز سابور رأسه و قال : نعم، و قد تفاجئنا لما رأيناها تدخل علينا بلباس الحرب، فلولا وجهها الصبوح و جمالها الفتان لظننتها أحد الأمراء، بل لولا جمالها و قوة عبارتها لقتلناها لا نبالى، و لكننا نحترم اللسان الفصيح و نحب الجمال أن يزين مجالسنا، و ماذا فعلت عندما أخذتموها من أحضان أبيها ؟
فأشرق وجه الحارس فخرا و قال : و الله يا مولاى لم نستطع أخذها باللين فضربتها على رأسها بالسيف لتغيب عن الإدراك، فلما استسلمت للإغماء وضعناها في الهودج و انطلقنا بها فورا، فإذا بأحد الحراس لحق بنا فأخذت بسيفي مع ثلاث حراس نبارزه فلم نقدر عليه، فقد كان قوي الساعد ينزل بالسيف علينا كالبرق، و لم ندرك أن نقتله

حتي رأينا الأميرة ظبية قد أفاقت و فقزت من الهودج كالغزالة و سحبت خنجرا كانت تخبئه في لباسها فلم أرد أن يصيبها الأذى فصرخت على الحراس : أعيدها للهودج و إياكم أن تمسوها بسوء.

و سكت الحارس ليلتقط أنفاسه و جال بعينيه في القوم لينظر مبلغ كلامه في نفوسهم، فرأى سابور حابسا أنفاسه و منصتا لكلماته و ولى عهده كان أحمر الوجه، بل خيل للحارس أنه رأى الغرام يجول في عينيه، فأكمل حديثه و قد أخافه نظرات الغرام التي تجول في عيني ولى العهد للأميرة الأسيرة و قال : و لكن الحراس تهاونوا معها فضربت أحدهم فسقط ميتا، و أرسلت خنجرها كالطائر الجارح يصيد ضحاياه ليستقر في قلب حارس أخر، فلما رأيت ذلك كان حارسها قد قتله أحد رجالنا ، فضربته ضربة أسقطته عن فرسه غارقا في دمه.

و أغمض الحارس عينيه يستعيد مشهد الأميرة و هي تصارع كاللبؤة في الليل، دون خوف رغم الخطر الذي كان يلفها وحدها في تلك الساعة الرهيبة، و رفع صوته مرتجفا ليكمل سرد قصته : فلما رأت الأميرة أن أملها في النجاة قد استلمته يد الموت و رأت الغلبة لنا سكنت ثم قالت بصوت قوى : أين تأخذني في هذا الليل و لأى غرض ؟

فأجبتها : إلى مجلس مولاى سابور سيد العراق، لا تسألي لأي غرض.

فضحكت ظبية و رأيت يدها القابضة على الخنجر ترتجف، كأنما مسها الجن : الموت أحب إلى مما تقول، فقل لأي شأن أراد مولاك رؤيتي.

فلما رأيتها ستكثر الجدال قلت لها : لقد رأد سابور تكريمك بحضور مجلسه.

فكشرت ظبية و قالت : أما ملككم فلا أرغب في لقاءه، و إن كان يحمل في يديه كل ذهب و المال في ديوان كسرى، بل لو أغرقني باللآلئ ما رغبت أن أستظل بظل خيمته.

فلم يسمع الحارس نفسا في الخيمة إلا أن شفتا سابور ارتجفتا، فقال ولى عهده متداركا غضبه : تذكر أنك أمنته و عاهدتها على إبقاء حياتها يا مولاى.

اهتز الحارس خوفا و ترقب ليقول سابور:

- أكمل حديثك و لا تخف فنحن نذكر أماننا.

فهدأت مخاوف القوم، و قال الحارس : بعد أن قالت ذلك، خيرتها يا مولاى بين أن

تعود للهودج فنكمل سيرنا، أو أضرب عنقها بسيفي فيبحث عنها وائل فلا يجد لها موطئا و لا يعرف جسدها و قد غمر بالتراب، فبدآ لي أن الأميرة قد وقعت في حيرة من أمرها، لكنها انصاعت و عادت للهودج لما رأت بعض الجنود قدموا من المعسكر، فسرنا بها حتي مثلت بين أيديكم يا مولاى.

فأومأ إليه سابور بالانصراف فخرج فرحا بالنجاة و تنفس الهواء خارج الخيمة، و عاد سابور ليناقش أمور الحرب مع قواده و قد ملئت أنفسهم بهبية الملك عرين، و تغلغلت مشاعر متضاربة في نفوسهم فأخفاها البعض في الصدور و ظهرت بعضها في العيون.

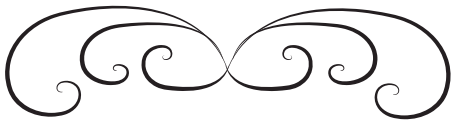

- يخيل إلى أن هذا الصوت للسان عربي.

فهز الحارس رأسه و قال بصوت خفيض : نعم يا مولاتي ظبية، أنا من حراسك و قد تبعتك إلى معسكر سابور.

فحدثت ظبية نفسها : ربما سابور يختبر إخلاصي و وفائي بعهده، و طال صمتها فقال الحارس : أراك تشكين في إخلاصي و وفائي.

فوضعت يدها على صدرها مضطربة و قالت : لقد انقض الثلث الثاني من الليل، و لا أستطيع أن أي وجهك فأتبين الصدق فيه و أتبين ملامح العرب.

فقال الحارس : إذا أذكر لكى اسما يجعلك تثقين في.

فسمعت ظبية صوته و أحست أنه صادق، و لكنها لم تظهر ذلك فقالت : لما بعثك سابور إلى، فهل يريد روحي أم يطلقني لحالي.

- لا يا مولاتي، و لكني دخلت خيمتك أمام الحراس و هم يظنونني منهم فليس لدى وقت طويل، فقولي بالله عليك أتريدين أن ترى النور ثانية و تعودي للمنذر و سيدى وائل.

فدارت الدموع في عينيها و قالت : هذا أقصى مناي و لكني لن أخلف عهدي، و أنسي والدي الذي رباني على الإخلاص و لو كان الموت نهايتي.

فعجب الحارس و قال : أستطيع يا مولاتي أن أخرجك من معسكر سابور الأن، قبل أن تدور الحرب فلا أجدك ثانية.

فهاجت كرامة الأميرة و قالت : و الله لا أخرج ولو أتي المنذر بقدميه ما فعلت فكفى و دعني لهمي، فظبية لا تخلف العهود.

فسكت الحارس ثم همس لها : إذا يا مولاتي خذي هذا استعيني به في وقت الشدة و هذا ليس إخلافا لعهدك.

و أخرج خنجرا وضعه أمام الأميرة و قال : عندما تجول الخيل و تبدأ الحرب سأتي إليك و أعطيك سيفا و فرسا تركبينه لتعودي، و لكني لا أمن في ذلك الوقت أن تضيعي الطريق.

فقالت متعجبة من إصراه لحمايتها : قل لي ما اسمك لأحفظ لك صنيعك هذا.

- و لكني حارسك يا مولاتي و قد تبعتك من خيمة المولاى وائل إلى هنا.

فشهقت الأميرة و قالت : ظننتك ميت.

فقال مبتسما : لا يا مولاتى، كان جرحا بسيطا و قد أدعيت الموت فلما ذهب بك الحراس ارتديت لباس الحارس الميت و جئت فأدخلوني على سابور و قصصت عليه الحكاية فصدقها.

فقالت ظبية : الأن صدقتك فأنت صادق أمين، و لكني على عهدي لسابور، فقل لي من جعلك حارسا لي.

فعرف الحارس أنها تريد دليلا أخر على صدقه فقال : مولاى مالك هو مسؤول عن حراسة النساء و الأميرات، و لترى صدقي يا مولاتي أقول لك أن جاريتك التي لا تفارقك تدعى صوفي و هي رومية، ثم أخذ يصفها كما لو كانت أمامه.

فتبسمت ظبية و قالت : لقد صدقتك و حياتي مرهونة بعملك الأن، فقل ما اسمك ؟

- أدعى جذع يا مولاتى.

- يا جذع لدى رسالة تأخذها لوالدي و المنذر، أتستطيع ذلك.

فقال جذع : سأفعل و لو طلبتي أن أدخل خيمة سابور فأطعنه لهذا الخنجر ما تردد لحظة.

- لا نريد موتك بل حياتك يا جذع، فإن ضيعتني في الحرب فذهب لوالدي قل له أني حيه و أخبره بالذي حصل، و المُثْلْ لمولاى المنذر فقل له إني على عهدي له و إخلاصي حتي مماتي.

فظن جذع أن الأميرة يئست من عودتها فقال في نفسه : و الله ما كنت الجذع حتي أعيد الأميرة للمنذر، و سيعرف التاريخ أني أفئ بوعودي.

ثم سأل : فإن عدت ضاع أثرك يا مولاتى، فإني أوثر البقاء خلفك لأعيدك بيدي.

فقالت : لا أدرى ما كتب لي الزمان في هذه الخيمة و لكني سأنتظر حتي أفي بعهدي، و ليكن ما يكون فقد علمتني الأيام الجائرة الصبر.

و لم يكد جذع يقول كلمة حتى سمع الجنود يتراكضون و المنادى ينادى : لقد أتي ملك الشام، أرى غبرة قرب السفح، استعدوا.

فوقف جذع و قال قد حانت الساعة يا مولاتى.

- سأنتظر هنا القضاء، أذهب حفظك الله.

و خرج جذع بعد أن أعاد الأمل لصدر ظبية، و أخذت ترهف السمع لتعرف ما يدور في المعسكر.

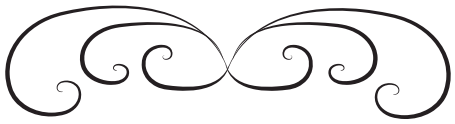

- جئت أطلب منك يا مولاى أن تطْلقني لأبحث عن ابنتي، فهذا القلب يكاد يثب من مكانه و لا أطيق صبرا على فراقها.

فقال الملك : و إن أطلقتك يا وائل فكيف تطلبها ؟ و أين تبدأ البحث عنها ؟

فحار وائل و أطرق يفكر في أمره، ثم خطر له خاطر فقال : لي رأى يا مولاى.

فتبسم الملك قائلا : قل يا وائل فقد عرفنا ما خطر لك.

- و كيف عرف مولاى.

-لأن أول خيط لظبية هو جاريتها صوفي، تريد أن تسألها عن أوصاف الحارس الذي لحق بها.

فهز وائل رأسه و قال : بل يخطر أن أقتفي أثره و أسأل أسرى الحرب عنه، فربما قد راه أحدهم فنعلم ما أل إليه حاله و حال ظبية.

فأشرق وجه الملك و قال : و الله قد أحسنت الرأي، ثم طلب زبيد فدخل عليه الخيمة و قد عرف من وجه وائل ما الأمر فسكت، بينما قال الملك : يا زبيد كيف الأسرى و الجرحى ؟

- يرفعون أصواتهم بالدعاء للملك يا مولاى.

أظهر الملك التعجب و قال : و هل يهنئ عيش العربي أسراً أو جريحاً في ظل عدوه ؟

- نعم يا مولاى لأنك وعدتهم بالعفو عنهم.

فضرب الملك بيد على الأرض، و كان جالسا على بساط مع وائل و قال : أتمنى أسرانا بالعفو عنهم دون مراجعتنا يا زبيد.

فتبسم زبيد و قال : نعم فعلت يا مولاى.

-و كم رجلا عفوت عنه يا ابن أنبل.

ففتح زبيد يديه علامة عدم المعرفة و قال : أتمني معرفة جزائي من ذلك يا مولاى، لأعفوا عن المزيد.

فضحك الملك و وائل، ثم قال الملك : نجود عليك بالجلد مئة جلدة على كل عشرة رجال و النساء يا زبيد، فهل سبلتنا إياهن أيضا ؟

فقال زبيد : لا يا مولاى، فقد بطيب لي بعد حين فعل ذلك.

فضحك الملك و قال : قل إذا كم رجلا شملت بعفوك يا شقي.

فقال زبيد : سلني عدد أسراك يا مولاى أقول لك عددهم.

فصرخ الملك : و كم عددهم ؟

- عدد الأسرى يفوق الثلاثة ألاف من أهل العراق بينهم أربعة مئات من الفرس و كثير منهم جرحى.

فقال الملك مبتسما بغيض : إذا لقد مات زبيد تحت سوط الملك.
ثم سكت و قال : لقد عفونا عنهم يا زبيد.
فضحك زبيد و قال : مثلك الذي يعفوا يا مولاى.
ثم رفع زبيد و وائل صوتهما بالدعاء، و الملك يبتسم منهما ثم قال لوائل : و لكن قبل ذلك نسأل عن ظبية و عن حارسها يا وائل.
فلانت ملامح وائل و وضع يده على صدره يهدأ نفسه، ثم قال لزبيد : أ تستطيع أن تسأل هذا العدد يا قائد الحرس ؟
فقال زبيد : و هل يشمل العفو أمراء العشائر و ولى عهد سابور يا مولاى؟
فقال الملك : أتجيبنا بسؤال يا زبيد، لقد أغرقناك بالدلال.
فقال زبيد : لا يا مولاى و لكن لي غرض من ذلك، فقد أغرقني مولاى جلدا بسوطه حتي نسيت نفسي.
فضحك الملك و قال : لقد عفونا عن الأسرى، و لكن نندبهم للقتال معنا من العرب و نكرم أمراء العشائر و لكن ابن سابور لا شأن له بالعفو. و إما السبيين النساء فلا نطلقهن إلا الأميرات، فقل ما غرضك من رواء ذلك ؟
فقال : غرضي يا مولاى أن يظل رجل أخر في الأسر يا مولاى.
قال : و من الرجل ؟
قال : رجل يدعى زهير من بنى طئ.
فقال الملك : من أهل العرق و من أشراف العرب، و لماذا ؟
قال : لأمر تعرفه بعد حين فأطلقني أتيك به لتسمع منه يا مولاى.
قال : سنفعل و نرى نهاية دلالك علينا.
تبسم زبيد و سكت، فقال وائل : مولاى، رد عليه.
الملك: نعم يا وائل لقد ابتعدنا عن المقصود، فقل يا زبيد كيف ولى عهد سابور ؟
- يملئ خيمة الجرحى بالأنين يا مولاى، فقد قطع له لبيد يده و غرس في صدره السيف، و لكنه كالجن مازال حيا يتوعد و يزمجر.
فرفع الملك حاجبه و قال : يتوعدنا و هو تحت رحمتنا، إنه قد ورث وقاحة الألفاظ في

دماء أجداده الفرس، و لم يأخذ عن سابور اللسان الهذب و سحر الكلمات.
ثم سكتوا، تجلجل صوته و قد تذكر اليفع فضاق صدره و قال : و هل يقدر على نهوض إلينا يا زبيد أم نجره هنا فسأله عن ظبية، و نعرف كيف استضافها سابور في مجلسه.
فقال : نستطيع حمله إليك يا مولاى، و لكني لسانك القاطع و يدك التي تضرب.
فتبسم الملك و قال : إذا اساله يا لسان الملك و اتني بالخبر كاملا، و أدعوا مالك أخاك.
ثم نظر لوائل و قال : أتعرف من وليناه ليحرس النساء و الأميرات في الخيمة يا وائل.
فقال : هو مالك بن أنبل يا مولاى.
فقال : نعم ندعوه لنعزله فلم يحرس أميرة المنذر.
فقال وائل : بل حرسها يا مولاى، و لكنها خطفت في خيمتي و تحت سمعي.
فسكت الملك و أشار لزبيد ليخرج، و قال : نعم لقد فعل عروة ذلك تحت أعيننا أيضا، و قد صدق عندما قال : لا سبيل لظبية إلا بالسيف.
ثم غرق الملك يفكر في عروة و كلماته الأخيرة عن الملكة، فدخل عليه عاصم مكفهر الوجه بين يديه رسالة، فقرأها الملك و أخذ وجهه ينتفخ حتي كاد يطير بصاحبه ثم أغلق الرسالة و رماها في وسط الخيمة، و صرخ في عاصم قائلا : جهز الجنود فسوف نقسم الجيش يا عاصم، و تكون على رأس الجيش من عشرة ألاف جندي، و عد إلينا بعد أن يصطف الجنود و تعد الذخير و انتظر أمرنا بالخروج.
فخرج عاصم و هو يمح على لحيته البيضاء متمتما : لقد جاء وقت الغضب، لن نرى الملك إلا شاهرا السيف في كل اتجاه.

{35}

- يا مولاتي في هذا الاتجاه.

أيقضها صوت جذع من ذهولها فرغم أن ظبية قد شهدت الكثير من المعارك و الغارات مع والدها وائل، إلا أنها صعقت من هول هذه الحرب العظيمة فالرؤوس تتساقط عن الأجساد، و الدماء تسيل من السيوف تروى ذلك السفح الواسع الذي كنت في الصباح تراه أقصاه إلى أقصاه. أما في عيني ظبية الأن فهو قطعة من الجحيم. تعرقت يدها القابضة على لجام الفرس الذى أعطاه لها حارسها جذع، و رأت جذع يرفع سيفه مشيرا إلى الجناح الأيمن صارخا : هناك تجديد المخرج من هذه الحرب يا مولاتى فهل تقدرين على صمود حتي نجتاز هذه المنحة ؟

قالت بحزم : نعم، يا حراسي سأكون ورائك، فسر بي.

همز جذع فرسه و ركض به مع ظبية يشقان الصفوف و ظبية تقاتل من يقابلها و جذع يمهد لها الطريق و يرد عنها الضربات، و الجنود من الشام يضربونها يظنونها من الأعداء و الجنود الفرس و عرب العراق يستغربون قتالها ضدهم فلما بدأت تصل لبداية الجناح الأيمن و ابتعدت عن وسط سمعت أصوات تصرخ روأها ميزت في صراخهم اسمها فالتفت جذع حوله و قال منبها : إنهم جنود تابعون لولى عهد سابور يريدن إعادتك يا مولاتي.

فصرخت ظبية بيأس : الموت لهم ، ألن يكفوا عن ملاحقتي.

فقال جذع : اركضي أمامي و سوف أتصدى لهم.

و اقترب الجنود يلاحقونها فزعق فيهم جذع زعقة جعلتهم يلتفتون له و أخذ يضربهم فطوقوهُ بالسيوف؛ و لكن أحدهم انتبه لابتعاد ظبية فركض مع عدة جنود تاركا جذع في حلقة السيوف و الرماح يصارع لرد الأذى عنه. و لم تلتفت ظبية ورائها فإن فعلت ذلك و عادت فقد ضاعت تضحية جذع لأجلها لذا كنْتَ ترها تضرب و تطعن و ما إن ترى فرجة في الصفوف تتغلغل فيها لا تبالى بالموت واقفا ينتظرها في جسد الفيل الأبيض الهائج، الذي كان يمزق و يمشي على الرجال بأقدامه الثقيلة و لم تمضى ثانية حتى رأت الفيل أمامها يدعوها لحلبة الصراع فخيل إليها أنها سمعت صوت المنذر

و كانت لحظة مشؤومة فقدت فيها تركيزها فأحست بجسدها يسقط عن الفرس و أن جبلاً قد سقط عليها و لم يكن ذلك إلا الفيل فإنه ضربها بخرطومه فقتل الفرس و مشى عليه كالمجنون لأن الرماح كانت تغطى جسده و سال دمه على الأرض الجثث.

ثم انقضى النهار فرأت ظبية الرايات تسقط و أصوات الرجال تسكت، لتحل محلها الهمهمات و البكاء و العويل مختلطا بأصوات الأنين و الألم. و كان بين الرجال الفارين من وجه ملك الشام رجل عراقي كان قد غطاه الدم و تجمد على جسده و لباسه، واقفا عند إحدى الجثث مستغربا فخيل إليه أنه سمع صوت أنين الفتى فتحسر على الفتى الصغير في ربيع الشباب مرميا بين اللحم البشرى، فوضع رأسه قرب رأس الفتى فعرف أنه حي و مازال فيه نفس يتردد، فأزال اللثام عن وجهه فسكت قليلا ثم تمتم قائلا : تحسرت على شبابه الفتى أولا و لكني أرى فتاه يا الله يا رب السموات كيف لها أن تكون في هذا الوضع.

غرق الرجل في التفكير و لكنه رأى رفاقه من الفرس و العراق ينسحبون ، حزم أمره و غطى وجهها و حملها بين يديه إلى خيمة الجرحى و تركها عند زاوية وحدها تصاره الموت، و أخذ يجول ببصره بين الجرحى و الجواري فلما وقع بصره على إحداهن تركت ما بيدها و ركضت إليه مبتسمة، و قد اطمأنت فقال لها : كيف الجنود يا جارية ؟

- أراهم بين كفيتي الحياة و الموت يا مولاى.

فهز رأسه بأسى و قال : هكذا حال الحرب، فقد قَتل شبابنا و فتياننا و كل ذلك لأنا لا نستطيع أن نرد سابور لما ندبنا للقتال.

فقال الجارية : و هل انسحب مولاى سابور معكم؟

- بل قُتل يا بنيتي قبل أن يمضي اليوم.

فسكتت الفتاة قليلا ثم قالت : و لمن الأمر الأن يا مولاى؟

- إن قائد الجيش قد تولى القيادة و انسحب بنا، و لسوف أعود بعد قليل لأى رأيه في الحرب غدا.

- و لكن ولى العهد موجود يا مولاى، ألم يكن له رأى في هذا الانسحاب.

- إن ولى العهد قد اختفي و لا نعلم أقُتل أم هو من الأسرى، بل ربما جسده مدفون في

هذه المقبرة.
فقالت الفتاة : إذا تعود الأن يا والدى و لكن قل لي لما عدت، ألتخبرني بما جرى معك في الحرب؟
فبهت الرجل و كأنما تذكر لما جاء، و قال بسرعة : أنساني الحديث لما أتيت يا ابنتي، فتعالى ورائي.
فمشت ورائه حتى وقف عند رأس جسد صغير و أزال اللثام عن وجهه، فشهقت الفتاة ثم ركعت تتفحص الفتاة المصابة و قالت : أتعرف من هي يا مولاى، و ما حكايتها؟
- لا يا ابنتي، و لكنى وجدتها بين الجرحى و الأموات و ظننتها أحد الفتيان الصغار، و لما بدآ لي أنها فتاة لم أجد إلا أن أحملها إلى هنا، فماذا تردين أن نفعل؟
ففكرت قليلا ثم قالت : أرى يا مولاى أن لها شأنا عظيما، فهذا الوجه رغم الألم البادي عليه يبدا مشرقا و صارخا بالسمو، و لا بد من أنها أميرة أو أسيرة قد رأت الفرصة سانحة لها جالت الخيل لتهرب؛ و لكن أنى لها أن تخرج إن كانت الرجال تدخل و لا تخرج إلا للقبور، و لكني أظنها قد سقطت ثم مشت عليها الخيول و الرجال و ربما يكون أحد الفيلة الجبارة قد وطئ على جسدها الضعيف.
- و كيف عرفتي ذلك ..؟
- هذا لأنى في هذه الخيمة منذ أيام، و رأيت الرجال كيف تكون إذا أصبحت أرضا تمشي عليها الفيلة يا مولاى.
ثم بدأت تعالجها و أخذت بعض الألواح و ربطتها مع والدها على رِجل الفتاة المسكينة، لأن الفيل قد وطئ على رجلها فكسرت و كانت هذه الفتاة هي ظبية.
انتهت من علاجها فقالت لوالدها : سأعتني بها و أراقبها يا مولاى، فلا نعلم ما يكون في الحرب فإن خرجت الأن و سقطت جريحا أو أسيرا، قد تكون هذه الصبية ذات فائدة لنا و سنلقي على وجهها منفعة يا مولاى. فاذهب الأن مطمئن البال فليس لديها إلا الصبر حتي تفيق و نسمع منها.
فوقف الرجال و لكن ظبية بدأت تهذى فوضعت الفتاة أذنها على رأس ظبية لتسمع، ثم بعد لحظات رفعت نظرها إلى والدها فقال سريعا : ماذا قالت ؟

- إنها تهذي يا مولاى.
- ألم تسمعي اسماً ؟
فأخذت الفتاة تمسح على رأس ظبية بشفقة ثم قربت رأسها ثانية و أنصتت ثم قالت لوالدها : المنذر... مولاى وائل.. والدى... هذا ما سمعته منها.
فأشرق وجه الرجل و قال : لقد قالت المنذر، المنذر إذا و وائل، لقد عرفتها يا زهرة عرفت من هذه الصبية المسكينة.
فقالت زهرة بلهفة : و من تكون يا مولاى، و كيف عرفت؟
فقال و هو يعبث بالسيف المعلق على خصره : هي أميرة بنى بارف، لا شك يا زهرة، لقد قالت المنذر و هي تقصد خطيبها الأمير الأصغر لملك الشام و وائل هذا هو والدها.
فتبسمت زهرة و قالت : أليس في الشام و ما حولها إلا منذر و وائل إثنين يا مولاى.
فقال نصرا : بل إني أحلف برأس أبي أنها ظبية بنت وائل يا زهرة، و عندما تستعيد عافيتها ترين أن والدك محق.
فسكتت و قالت : لابد أنها ستسألك أن تعيدها إلى عشيرتها، فماذا تفعل بها؟
- أفعل ما أشرتي على به يا زهرة، سأعيدها لأهلها طبعا؛ و لكن سنحتفظ بها الأن فقد لا يخرج باقي الجنود للقتال في الغد، فإن تحتم علينا الرجوع أو الفرار فكوني حارسةً لها يا زهرة، و ابقي مع الجرحى و النساء فقد خسرت أبنائي الثلاثة و لا أريد أن يكون مصيرك مثلهم، لقد أخذ سابور أرواح أولادى الثلاثة، و لا أستطيع أن أقدم المزيد.
فسكتت زهرة لأ لَتزيد من ألآم والدها، و أخذت تفكر في هذه الحورية المسكينة المستسلمة للنوم استسلاماً يبدو كأنها هي في حاجة لمئة عام لتعود منه، و ظنت أن الفتاة لن تعيش أكثر من عدة أيام و ظلت مع ظبية ترعاها و تنظر في أمرها، حتى جاء يوم بارد فتحت فيه ظبية عينيها و عرفت أنها في الحيرة في أحد القصور مع طائفة من النساء و الجواري و بعض الجرحى، فتلفتت تسأل عما حصل لها و تستعلم أحوال الحرب و الجيشان. فقالت زهرة : اسأليني عما تريدين فأنا هنا كأختك.
فقالت ظبية : أسألك عن أحوال جيش الشام.

- إنهم في عين أباغ منذ انسحاب جيش سابور.

فرقص قلب ظبية فرحا لسماعها بالنصر و قالت : و هل تظنين أن ملك الشام قد يسير إلي الحيرة يا مولاتى.

فعرفت زهرة أن ظبية تريد أن تعرف إن كان في مقدورها مُلاقات الجيش إن تقدم للحيرة، و لكنها لا تلومها فقد عرفت قصة أسرها من والدها و لابد أن هذه الأميرة تريد العودة لعشيرتها و خطيبها.

- لا أعلم إن كان سيسر للحيرة، و لكن الجنود الفارين يقولون أن ملك الشام لم يعد لقصره فربما له غرض غير الدخول للحيرة.

فسكتت ظبية و لكن زهرة لم تسكت فقالت : إن الأفواه تتناقل اسم أميرة من حوران و البلقاء يقال أنها مخطوبة لأحد أنجال ملك الشام.

فقالت ظبية بجهل : و ما شأنها في الحرب يا مولاتى؟

- لها كل الشأن، ألم أقل أنها خطيبة للأمير.

- نعم عرفت ذلك.

- و هي كانت أسيرة في يد سابور، لكنها ضاعت في الحرب و غرقت في بحر الدماء.

ارتجفت ظبية و هي تسمع قصتها على ألسن أهل العراق، و سألت : أتعرفين ما فعل خطيبها و عشيرتها بعد ذلك؟

- إنهم يحفرون في الأرض بحثا عنها و إن كانوا مترددين في دخول الحيرة، فإن الأميرة ستدفع بالرجال للموت لتعود لعزها و مكانتها؛ لكن ما دخلنا في أمر الأميرة، فقولي الأن ألن تخبرني بقصتك يا ظبية ؟

فرأت زهرة عيني ظبية تضيئان من جديد و يديها ترتجفان فضلت على صمتها، حتى قالت ظبية : لقد غمرتني بعنايتك و رحمتك و لم أعرف اسمك لأدلك صنيعك يا مولاتى.

- أنا زهرة بنت زهير بن طئى، أسكن مع والدى في أطراف العراق في الخيام و بين النوق.

فقالت ظبية : أنتِ أميرة بنت أميرت زهرة، فشكرا لله لأني وقعت بين يديك يا مولاتى.

تبسمت زهرة و قالت : و لكنى لست أرفع مقاما منك.

- ماذا دلك على ذلك.

لمعت أعين زهرة و قالت : دلني عليه هذا الجمال البهي و اللسان الكريم.

- إن أكون أميرة فأنا أسيرة، و إن كنتِ يا مولاتى أقل نسبا فأنتِ أرفع منى بأخلاقك و عنايتك بي. فاعلمي أنى ظبية بنت وائل بن بارف، و أنا هي الأسيرة الشاكرة لكي معروفك يا مولاتى.

فأشرق وجه زهرة فرحا، و قالت : لم يخطئ مولاى ،عندما قال إنكِ ظبية أميرة المنذر.

خفق قلب ظبية لما سمعت اسم المنذر، و أرخت ونظرها فقالت زهرة لتهون عليها : أيطيب لك أن تعودي لأهلك و أحبابك يا ظبية.

فتنبهت وردت : نعم بل يطيب لي أن أموت على أن أراهم لساعة يا مولاتى.

- إذا أسألك عن ملك الشام أيعفو عن الأسرى و يطلقهم.

- نعم ، فإن علم أن مولاى زهير قد أخرجني من أحضان الهوان لجعله ملك.

- لقد أحضرك والدى و أوصاني عليك، و عاد ليكمل واجبه مع جيشه فلم يعد فهو أسير لدى ملكك، و أرجوا أن يستطيع المثول أمامه فيعلمه بخبر نجاتك و يرسل في طلبك.

- و إن لم يفعل.

- أيمنع ملك الشام أسراه من الحديث.

- لا، يستطيع ذلك و لكنى لا أمن على القدر، فلا أعلم إن كنت سأعيش حتى يأتي من يعيدني لمولاى وائل.

- سيفعل إن شاء الله يا ظبية، و سوف ننتظر أن يبتسم لنا القدر فتعودي لوالدك و يعود لي والدى.

تبسمت ظبية و قالت : كلتانا متفقتان على ذلك إذا.

- نعم ، و لكنى أرى أن نرسل رسولا فربما يطول الأمر حتى يأتي جيش الشام.

- و هل يستطيع أحد الخروج من هذا الحصن.؟

- لا يستطيع دون إذن من قائد الجيش، و لكن سنبحث في الأمر، فربما يرسل لنا القدر من يقدر على ذلك.

فخطر لظبية أن تسأل فقالت : من هو قائد الجيش اليوم؟
فحدثتها زهرة بما جرة في الحرب، فأجفلت ظبية لما سمعت بموت اليفع و لم تستطع زهرة أن تمنعها عن البكاء فسكت، و ظبية تبلل وجهها بالدموع حزنا و قهرا فلما هدأت سألتها زهرة عن قصتها. و انقضى اليوم على الفتاتان و كل منهما تحدث الأخرى عن حياتها، ثم استلمتا للنوم و لسلطانه القوى و قد ربط القدر قلبيهما فأصبحتا صديقتين، و كانت زهرة تقول لمن حولها من نساء و أسرى أن ظبية أختها من جهة الأم و كانت لا تفارقها أبدا، لأن ظبية لم تكن قادرة على النهوض و المشي بدون مساعدة زهرة بسبب الكسر في ساقها، و كان قد مر عليها تحت رعاية زهرة في الحيرة أسبوع، ففي النهار تسأل عن أحوال الجيش و في الليل تتذكر أيام الهناء مع وائل و المنذر و في قصر الملك بين الأمراء.

{36}

فتح أهل حوران عيونهم على مشهد الرسل الرومان مرتدين قلاوس عليها ريش أحمر، فملئت السفوح و شرفات المنازل بالنساء و خرج الأطفال و الشيوخ و الغلمان يركضون هنا و هناك يحدثون سادتهم بأمر مجيء حامية من الروم بقيادة هيرودس، بعثه القيصر ليساعد الملك في حربه مع سابور و ليطلب منه أن يتقدم و يستولى على الحيرة و كل العراق ثم يتقاسمان الغنيمة بينهما، و تحدث الجميع بذلك في القصر حيث حمزة جالسا في الدوان و بين يديه هيرودس مع أحد رجاله، و حمزة ينظر إليه بنظرات الشك و الريبة فقال هيرودس : أيسير الملك إلى سابور دون أن يدعونا للقتال

معه.

فتبسم حمزة و قال : لقد أراد الملك أن يسير للحرب ففعل، و ليس لنا أن نراجعه في أمره.

- و لكن القيصر يشعر بالخيبة فقد ظن أن ميثاق الصداقة و السلام بيننا سيدعو الملك ليشركنا في حربه، فيُمسكن الجندي الرومي بيد الفارس الضبعي و معا ندك أسوار الحيرة و نضرب كسرى فيخسر قوته في شرق.

فهز حمزة رأسه يمينا و يسارا قائلا : ليس ذلك الأمر ما دعاء مولاى الملك للحرب.

- ما هو إذا، إن لم يكن بهدف التوسع و زيادة القوة.

فقال : أراد مولاى الملك أن يرد الدين القديم لعامل الفرس والد سابور، ألا تعلم أنه قد قتل ملكنا خالد عندما كان مولاى عرين وليا للعهد.

- أذكر ذلك، و أعلم أن الروم لم يكونوا عونا لكم في تلك الحرب يا حمزة.

التمعت الذكريات في عيني حمزة و قال : بل لقد خذلنا الروم و لم يحركوا ساكنا مدعين أن الثورة بدأت تشتعل في بلادهم، فخسرنا ملِكنا و كثيرا من أبطالنا و شباننا الشجعان.

فقال : لقد انقضى ذلك الزمن و نحن اليوم نمدكم بالرجال و نساندكم في حربكم فقد نسينا الماضي، ألست يا حمزة نائب الملك هنا.

فقال حمزة : نعم أنا نائبه.

- إذا دعني أسير إلى معسكر الملك فأعرض عليه سيف الروم.

فقال حمزة : نعم و تشهر ذلك السيف في وجوهنا، أتراني من الغباء لأصدق ما تدعى و تقول يا هيرودس.

فأحس هيرودس بالخطر و فكر أن يصارحه بأمره فقال : إنك نشك بي إذا.

فرد عليه حمزة : ذلك شأني وحدي، و لكنك لن تحرك قدما حتى يأتيني أمر من مولاى الملك.

- قد يطول مكوثي هنا يا حمزة، عندها يطرب الجنود و قد يتقدمون ليسألوك عن قائدهم.

- سترسل لهم أنك ضيف علينا ، فيطمئنون و ينتظرون أوامرك لهم.
ارتجفت شفتا هيرودس و أيقن أنه أصبح أسيرا لدى حمزة و ربما يقتله في إحدى ساعات الليل و جنوده بعدين عنه، فقال مستسلما : بل ينتظرون أمرك أنت يا حمزة، و لكنك لن تقدم على قتلي.
ضحك حمزة و أمسك بلحيته يمشطها بكف يديه قائلا : و ماذا يمنعني من ذلك؟
- الملك عرين بنفسه لا يفعل ذلك.
- و لكن الملك ليس هنا، و قد ولاني الأمر و النهي، و إن سألني لما قتلته أجيبه بأنك كاذب في أسباب مجيئك إلى القصر، فيسكت من ذلك.
قال : و لكن القيصر يعتبر ذلك إهانة له و جرحاً لكرامته، فيرسل لك سيلا من الروم ليثأروا لي و تكون قد جنيت على نفسك.
فظهر على وجه حمزة الجد و قال : لا تهددنا بالقيصر يا هيرودس فليس من عادة القياصرة إرسال الجنود دون ميثاق و دليل، و إني قاتلك بسيفي و دافن جسدك في الصحراء الواسعة، أما رأسك أبعثه للقيصر يتصرف فيه كما يشاء و لا أبالى.
سكت هيرودس ثم أخرج رقا مطويا و قدمه لحمزة قائلا : إنه رسالة بعثها القيصر و أوصاني أن أسلمها للملك، و لكنك تشك في صدق مسعاي فقرأها و أنظر إلى الختم عليها.
فأخذ حمزة يعيد قراءة الرق ثلاث و أربعة مرات ثم لانت ملامحه و أخذ يبش لهيرودس و يلطف له الحديث، ثم اعتذر عن تسرعه في الشك فيه. فقرر هيرودس أنه سينتظر أمر الملك لينظم إلى جيشه، و خرج إلى إحدى الغرف الرحبة و كان معه حارسان من الروم على بابه و نام مرتاحا مطمئنا، فلن يجرأ حمزة على قتله و مرت ساعة من الليل فكان هيرودس يغط في نومه. فتسلل الرجل الذي كان معه في لقاءه بحمزة و مشى مترددا في ممرات. فَضاع و لم يعلم أين يجد الطريق للديوان، فقابل في طريقه امرأة تمشى ورائها الجواري فظن أنه أمام الملكة أو الأميرة فتقدم و انحنى أمامها فنظرت الملكة إليه مستغربة، فأشارت على ماريا لتسأله. أطاعت ماريا و وقدمت إليه لتسأله عن شأنه فقال : أنا كاتب القيصر و نائب هيرودس الذي جاء

ليدعم الملك في حربه، فتنازلت الملكة و سألته : هل يقدم القيصر أرواح رجاله في سبيل الصداقة أم للتكفير عن الذنوب و الأخطاء الماضية.

فقال الرومي : من يدرى بما يفكر القيصر و لكنه أمرني بالمجيء ففعلت يا مولاتى.

فضحكت الملكة سمية و قالت : إنكم أيها الروم جرؤن حقا لتفعوا ذلك، و ماذا تفعل بخروجك وحدك في الليل تجوب القصر دون إذن نائب الملك.

فقال معتذرا : لقد أضعت طريقي يا مولاتى.

- ماريا، دليه على طريق حتى لا يضيع ثانية.

ثم لفت وجهها عنه لتتبعها وصفاتُها، فرفع الرومي رأسه أخيراً و قال لنفسه : إن لملكة حوران كبرياء و غرورا لم أره في قصر القيصر ذاته.

ثم التفت إلى الجارية و أخذ ينظر إليها مركزا في وجهها ثم صعق و هتف : أنتِ رومية يا جارية؟

فقالت و هي تخفى وجهها : نعم أنا رومية، و ليس غريبا ذلك فالقصر مليء بالجواري و الغلمان الروم.

فرد : و لكنك تشبهين...

فقاطعته قائلة : إنك تهذى يا سيدى، فلست إلا جارية لدى مولاتى الملكة.

فسكت الرومي قليلا ثم قال : لربما تلك مخيلتي فقط، أما الأن فدليني على غرفة هيرودس.

سمعت ماريا الاسم فتلبكت و لاحظ ذلك الرومي فتأكدت ظنونه و علت وجهه ابتسامة خبيثة.

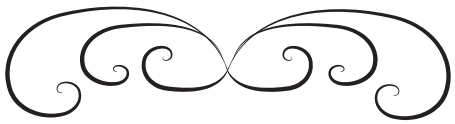

- ظننتك نائما يا نائب الملك.

أحس حمزة بنبرة العتاب في كلام الملكة فقام معتذرا، و قال : بل كنت أفكر في

الحديث الغريب الذي جاء لأجله هيرودس إلى حوران يا مولاتى.
مشت الملكة و جلست على سرير واسع في صدر الديوان و أشارت على حمزة ليجلس و سألته : كيف رأيت هذا الرجل يا حمزة.
فجلس حمزة و قال : رأيته قد جاء لغرض غير الذي أظهره لنا يا مولاتى.
فقالت الملكة مفكرة : إن الروم لم يتحركوا عندما خرج الملك بالجيش إلى سابور و لم يبالوا بالحرب؛ و لكن الأن أصبحوا يرغبون أن يكون لهم نصيب من الغيمة.
- و هذا ما أراه، بل ربما هم ينتظرون ليعرفوا لمن الغلبة في الحرب فيساندوا المنتصر و يحصلون على بعض من غيمة الحرب، مثل ابن أوى الذي يتبع الأسد فلما ينام الأسد بعد الصيد، يلتف ابن أوى على الباقي من الفريسة و يتخذها طعاما له.
فابتسمت الملكة و قالت : و لكن ابن أوى يجول ويصول في القصر و نراك لم تبالى بذلك.
فقال حمزة : كيف ذلك يا مولاتى ؟
فقالت : أليس مع هيرودس أحد خاصة القيصر مرافقا له.
قال : بلى و هو كاتب القيصر.
قالت : لقد رأيته من لحظات في طريقي إليك و كان وحيدا بلا حراسة.
فبُغت حمزة و قال : سأرى ما قصده من ذلك الأن.
ثم نادى على الحاجب و قال له : أدعوا الرومي مرفق هيرودس، و حذارى أن يشعر هيرودس بذلك.
و عندها وقفت الملكة و قالت : لا أريد أن أقابله الأن حدثه يا حمزة و إسبر فور قلبه، فلم يكن يجول وحيدا إلا لأمر عظيم.
فهز حمزة رأسه و ظل يفكر في أمره، و بينما هو بانتظار حضور الرومي دخل عليه الحاجب قائلا : لقد وصل الرسل من مولاى الملك.
ففرح حمزة و قال : و من هم؟
- إنهم عاصم بن العباس و لبيد بن ثعلبة و مولاى الأمير قيس.
فقام حمزة ليرحب بهم مبتهجا و تواقاً ليعرف أخبار الحرب، و كان وصول قيس و

عاصم و لبيد مفاجئا و سريعا، و قد جاءت معهم الأميرة زبيبة و سلمى و الوصيفات صفية و فاتنة، و معهم عشرة ألاف جندي و النساء و الجرحى الذى لا يستطيعون متابعة القتال، فلما سلم عليهم حمزة جلس بين يدى الأمير ليستمع لأخبار الحرب، فامتقع حالما سمع بموت اليفع و أخذ يتمتم مذهولا : مولاى اليفع .. مولاى اليفع.

ثم سكت و تابع قيس حديثه فلما فرغا قال حمزة : إن مولاى الملك لا يصدق أن القيصر يريد دعمه بالجنود في حربه، و أنا كذلك لا أصدق حرفا مما قاله هيرودس، و لكن الرق من القيصر عليه ختم يا مولاى الأمير.

فقال قيس : سنرى هيردس و نسمع حديثه و نعرف الصدق فيه.

فسأل عاصم : أيسمح مولاى أن نرى الرسالة.

فقال قيس : أين الرسالة يا حمزة ؟

فقام حمزة و أحضرها فلما قرأها الأمير مررها إلى عاصم و لبيد و سأل : ما رأيكم في هذه الرسالة ؟

فقال عاصم : بعث مع هيرودس ستة ألاف و وعدنا أن يبعث المزيد في شكل دفعات، إذا وافق الملك على توغل في بلاد الفرس ! إنه يهزأ بنا يا مولاى الأمير، أنمشى بكل رجالنا و لا يبحث إلا ستة ألاف، كما أن الفرز غير مضموم في بلاد الفرس.

فهز قيس رأسه قائلا : إنه لا يهزأ بنا، بل يريد أن نخسر الحرب و نضعف و نطلب منه المزيد من الرجال و السلاح، ثم تكون فرصته سانحة ليوجه السيف لأعناقنا بدل أعناق الفرس، و أنت يا لبيد ما رأيك ؟

فقال : لدى رأيان يا مولاى.

- ما أولهما ؟

قال : أولهما أن تُحدث هيرودس بمفرده و تفعل كذلك مع كاتب القيصر و تعرف ما يخطط له كلا منها، فيخيل إلي أن القيصر قد بعث بكاتبه ليفعل فعلا من رواء هيرودس.

فقال قيس مبتسما : لقد خطر لي ذلك و سنفعله قريبا، و ثاني رأى ؟

تبسم لبيد و قال خافضا صوته : أما الثاني فأن ترسل إلى جنود الروم الذين يخيمون

على أطراف حوران برأس هيرودس.

فخرجت عيون الرجال من محاجرها، إلا قيس فضحك و قال : لقد أحسنت الرأي يا لبيد.

ثم أخذ قيس يمشى ذهابا و إيابا أمامهم مفكرا و قد عرف ما يرمى إليه لبيد بحديثه،

ثم دخل الحاجب قائلا : لقد حضر كاتب القيصر.

فأشار قيس على حمزة ليسكت و قال لحاجبه : هل عرف بحصورنا ؟

- لا يا مولاى.

فقال قيس محدثا حمزة : قابله يا نائب الملك، أما قيس فلم يصل للقصر بعد.

ففهم حمزة ذلك و مشى ليجلس مكان الأمير، بينما كان عاصم و لبيد و قيس قد خرجوا ليختبئوا رواء العرش منصتين للحديث.

يتابع في جزء الرابع

مملكة الضباع

الجزء الأول : ظبية ضيفة الملك
الجزء الثاني : ظبية تأسر قلب المنذر
الجزء الثالث : المنذر يبحث عن قلبة
الجزء الرابع : ظبية بين فراق و لقاء

كتب أخرى للكاتبة :

زنبقة السيد فولتر
مدينة يسكنها الضباب

مملكة الضباع 3

المنذر يبحث عن قلبه

Sundus Mohammed

تصميم الغلاف

فاهتز مجلس سابور من جرأت الفتاة و ارتسمت على شفتي سابور ابتسامة باهتة، و استلذ حديثها، و رأى في عينيها التصميم و في وقفتها ثبات الأسود، بل إنه أحس بالنار في عينيها تكاد تحرق عيناه بحرارتها، فتمتم مرددا كلماتها بمتعة:

سيد العراق، سيد العراق.

ثم نظر إليها و أراد أن يتلاعب بها فقال :

نعم نحن سادة العراق و بعد ليلتين سنمسي سادة الشام و الحوران، و نجعلكِ تسقيننا الخمر و ملِككِ مقيداً أمام نظرك فلا تستطيع له عونا. و ماذا تستطيع أميرة أن تفعل في معسكر سابور غير أن تطلب منا الرحمة ؟

فردت بصوت مختلج : بل تستطيع أن تغرس خنجراً في قلبك، و أن تسمم طعامك، بل أستطيع أبتسم لك و في قلبي نار لا تنطفئ حتى ألمس برودة جسدك بعد أن يسيل دمك على هذا البساط.

أسماء الأوجلي